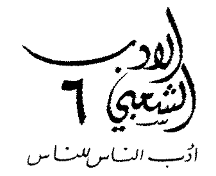


حيص بيص

أدب الناس للناس



سلام الرّاسي

حيص بيص



توزيع
معرض الشوف الدائم للكتاب
☎ ٠٥ - ٥٠٧٥٧٦

الطبعة الرابعة

١٩٩٨



٩٩ شارع الصوراتي • بيروت • لبنان • فاكس ٣٥٤٣٩٤ (٠١)
تلفون ٣٥٤٨٩٨ (٠١) ٧٤٦١٣٠ (٠١) ٤٩٩٠٧٤ (٠١) ٣٥٣٥٠٨ (٠٣)

مقدمة

صارت الحبّة قبّة

يُحكى أنَّ أحد رجال الدين أراد أن يبني معبداً لله في قريته ، وراح يستنهض همم أبناء القرية ـ وجلّهم من القرويين ـ ليجودوا على الله ببعض ما جاد عليهم من حبوب أرضهم ، فقال أحد المشكّكين :

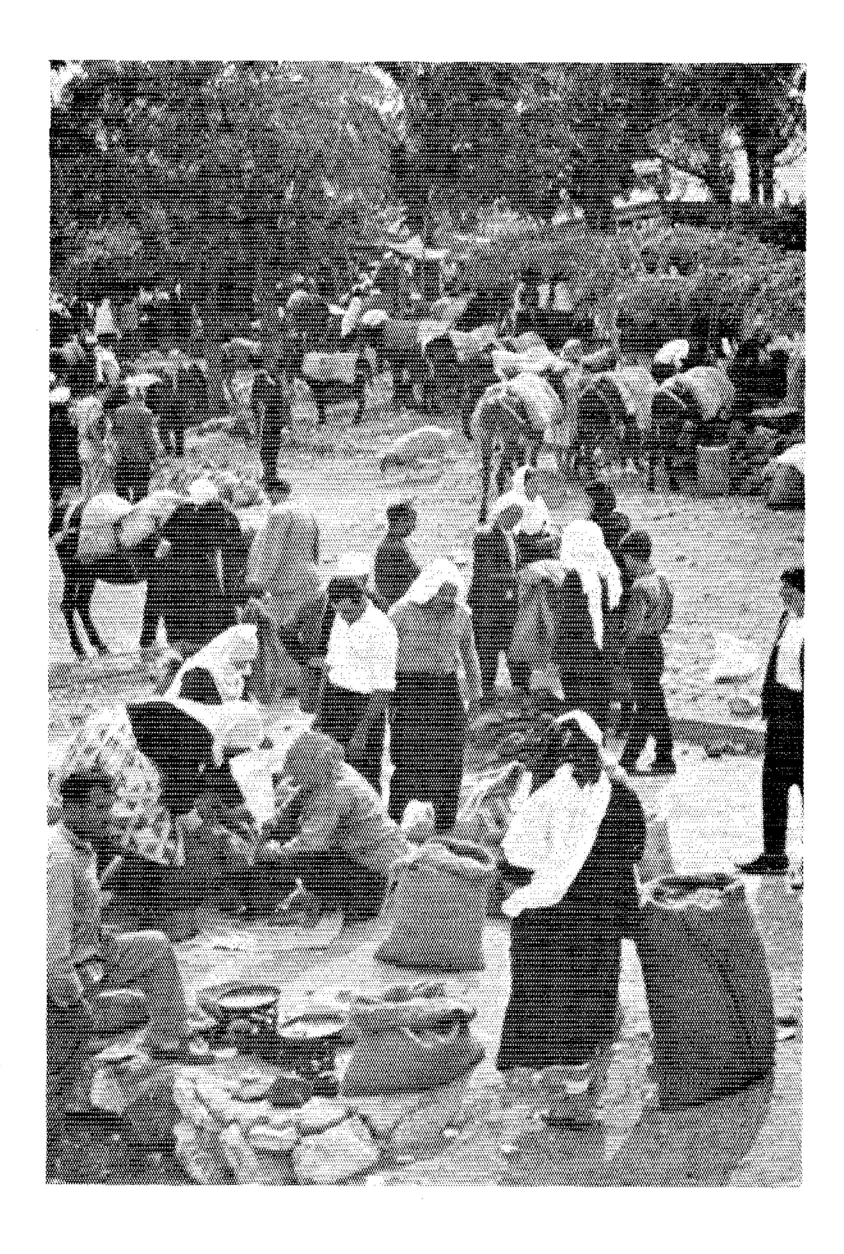
ــ وهل تصير الحبَّة قُبَّة ؟

لكن ذلك لم يفتّ في عضُد رجل الله وثابر على جمع الحبوب وبيعها وإنفاق أثمانها في سبيل الله حتى أتمّ بناء المعبد ، فقيل :

ــ **صارت الحبَّة قُبَّة**

وها أنذا أثابر منذ ثلاث عشرة سنة على جمع حصاد مأثورات الأدب الشعبي . وها هوذا كتابي السادس في هذا الموضوع ، والحبل على الجرّار ، إن شاء الله .

فهل تصير الحبَّة قُبَّة ؟



حيص بيص

كانت جارتنا أم سرور كلّما أنجبت ولداً ، تختلف مع زوجها عند اختيار الاسم المناسب له ، ثم ينتقل الخلاف الى الأهل والأقارب والجيران ، فقالت أم سرور أخيراً :

– ياما أهون الحَبَل والولادة عند اختيار إسم المولود .

وأضربت أخيراً أم سرور ، بعد مولودها السابع ، ونذرت العفّة .



ويُحكى أنَّ رجلاً أنعمت عليه السماء ، بكثر البنات . لكنّه ثابر على شكران الله الذي لا يُحمد على مكروه سواه ، حتى جاءَت الابنة الخامسة فسماها « كفى » ثم جاءَت السادسة فسمّاها « منتهى » . ثم جاءَت السابعة فسمّاها « تمام » . ثم جاءت الثامنة فسمّاها « خاتوم » .

ثمَّ أنعم الله على الرجل بابنتين توأمتين متشابهتين ، وبالنظر لعدم وجود أسماء في حجم هذه الداهية الدهماء ارتجل الرجل لابنتيه اسماً مشتركاً لا معنى له هو « حيص بيص » . وجرى هذا الاسم مجرى الأمثال نعود اليه كلّما اكتنفتنا الحيرة أو ساءَت بنا الحال .



وكانت عمّتي أم سعيد قد تخصّصت باختيار أسماء المواليد الذكور - دون الإناث - في القرية . فإذا جاءَت ساعة إحدى الحبالى لتلد ، جاءَت عمّتي وجلست الى جانبها وتنبّأت لها بمولود ذكر ، وراحت تتبرّع لها بأسماء مناسبة للصبي العتيد ، لتختار المرأة منها ما تريد ، فتصرف ، بذلك اهتمامها عن آلامها الى توهّمات أحلامها .



وكنتُ قد أنجبتُ سابقاً خمسة كتب انتخبت أسماءَها من وحي نباهة عمتي الطيّبة الذكر أم سعيد . ثم حبلتْ جعبتي بمولود جديد ، هو هذا الكتاب بالتحديد ، فتراكمت عليَّ نصائح الأصدقاء والأشابين والقوابل ، بشأن تسمية الكتاب ، حتى اختلط الحابل بالنابل ، فقلت أخيراً : « وليكن اسمه « حيص بيص » ، وعلى روح عمّتي أم سعيد السلام .

الأدب الشعبي :
أدب الواقع الانساني

الأدب ، كل أدب ، هو فن التعبير عن أفكار جميلة ، بكلمات جميلة ، وأسلوب جميل . . وأكثر من ذلك ، فالأدب هو فن التعبير عن إرادة الله ، لأن أفكار الله انتقلت الى البشر في قوالب أدبية جميلة ، ولعلّ أبلغ أنواع الأدب هو أدب النبوءات وآيات الوحي ، بواسطة الرسل والأنبياء .

وأهمّية الأدب الإلهي - كما يمكن تسميته - هي في أنه مكرّس لخدمة الناس ، ولذلك يفقد كل أدب حرارته إذا ابتعد عن المفاهيم الانسانية الراهنة .

ولعل الأدب الشعبي هو أكثر أنواع الأدب اقتراباً من إرادة الله لأنه أصدقها تعبيراً عن الواقع الانساني .

الحكايـة

أبلغ وسائل التعبير في الأدب الشعبي

كان أبو ناصيف ناطوراً في إبل السقي ، وعندما قسيت أجنحة أبنائه رمى عصاه وتفرّغ لمعاشرة الأوادم ، فصار يقعد في مقاعد الرجال ويمدّ حديثاً ويجزم ويحسم ويشقع مداميك الكلام ، لكل مقام .

وحيث أن « مقام المرأة » هو أوسع مقامات الكلام ، في مجالس الرجال ، يبدأون أحاديثهم عنها حيناً ، وعليها أحياناً ، ويحورون ويدورون ويرجعون إليها ، لذلك نفض أبو ناصيف شرواله ورحرح زنّاره وقال :

ـ يُحكى أن خلافاً في الرأي نشب بين رجل وزوجته ما لبث ان تطوّر الى مماحكة فمناكفة فمجاقمة فقيام كلام فخصام . ثم تربّص كلّ واحد منهما عند حدوده . فخشيت المرأة أخيراً ان تكبر القضية في رأس زوجها ويعمد الى طلاقها لأن المثل يقول :

أمّني للميّ بالغربال ولا تأمّني لرجّال .

وفطنت الى وجود شيخ حكيم معدود مقصود في إحدى القرى المجاورة ، وهو ، يومئذٍ ، فكّاك مشاكل الملهوفين ومشكى ضيم الضالين والمضلّلين ، فقصدته من بلد الى بلد وقالت له :

ـــ زوجي ، حماك الله ، شديد الغضب قريب العطب كثير النزق سريع الحماقة والحمق ، يُعطي أذنه للناس ويفتح صدره لكل وسواس . وأنا يشهد الله ، أقضي يومي بالطبخ والنفخ ، والجلي والملي ، والكنس والمنس ، والغسل والمسل ، والفرش والمرش ، والغزل والمزل ، وغير ذلك ، فلا شاط يوماً طعامي ولا شطّ عن المألوف كلامي ولا أهملت هندامي ولا ملّ الناس يوماً مقامي . .

فقاطعها الشيخ :

ـــ ولكن هل جئتِ يا امرأة لتحدِّثيني عن جودة طعامك وفصاحة كلامك وحسن هندامك ؟

قالت :

ـــ عفوا يا سيدي ، فأنا إنما جئت لأخبرك أن سوء تفاهم طرأ مؤخراً ، بيني وبين زوجي ، فانقطع عني . وأنا أخشى اذا طالت القطيعة في ما بينه وبيني ، أن يضيق صدره ويفرغ صبره ، ويلجأ الى طلاقي منه . لذلك جئت الآن ألتمس رأفتك ، لعلّك تكتب لي كتاباً او تصنع لي حجاباً ، أو تمنّ عليّ بإحدى الطلاسم ، او التعاويذ التي تعيد ثقة زوجي بي وتجدّد مودَّته لي .

فقال الشيخ :

ـــ لا تخافي يا امرأة ، الله كبير ، ولكن ، لكي أضمن استجابة طلبك ، إذهبي وأحضري لي سبع شعرات من شارب الضبع ،

لأصنع للكِ بواسطتها إحدى الطلاسم السحريّة ، وعلى الله الاتكال .

فمضت المرأة .

ثم رجعت بعد عشرة أيام وقالت للشيخ :

ــ هذي سبع شعرات من شارب الضبع .

فذُهِل الشيخ ، لأن الضبع حيوان لئيم خسيس قليل الشرف عديم اللياقة يصعب التعامل معه ، ثم قال الشيخ للمرأة :

ــ أخشى ان تكون هذه الشعرات السبع من شارب زوجك !

قالت المرأة :

ــ لو كان بإمكاني أن أمدّ يدي الى شارب زوجي لما جئت أطلب معونتك .

قال الشيخ :

ــ ولكن كيف كان بإمكانك ان تمدّي يدك الى شارب الضبع .

قالت :

ــ الأمر بسيط جداً . . عندما رجعت الى قريتي تذكرت ان بعض رجال القرية يتحدّثون ، في سهرات الشتاء عن ضبع عتيق يعيش في « مغر الخرائب » وهو يشاهد في بعض الليالي قرب

المخاضة ، على نهر الحاصباني ، فحملت كمّية من اللحم وتوجهت ذات مساء الى ذلك المكان . وما ان خيّم الظلام حتى لمعت عينا الضبع من بعيد . . وعندما اقترب مني رميت له قطعة من اللحم فالتهمها ، وصرت كلما دنا مني أرمي له قطعة أخرى حتى شبع ورجع من حيث أتى .

وفي اليوم التالي أعدت الكرّة ، وهكذا دواليك ، لمدة خمسة أيّام ، وفي اليوم السادس ، عندما ذهبت وجدته ينتظرني وهو يهزّ ذيله ترحيباً بي ، فرميت له ما كان معي من اللحم ورجعت أدراجي .

كانت المرأة تتابع حديثها عن كيفيّة استدراج الضبع ، والشيخ يصغي ويقول في سرّه : **المرا القهّاره قدّاره ، نجّنا يا ربّ !**

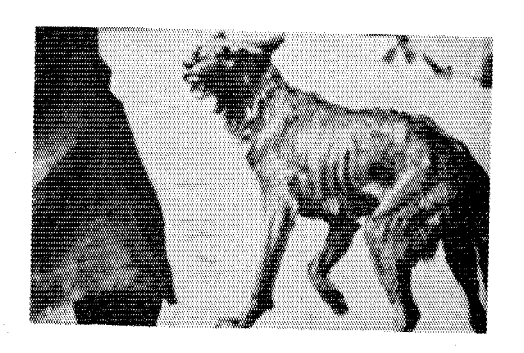
وتابعت المرأة كلامها :

ــ وفي اليوم السابع وجدت الضبع راقداً على الصخرة ينتظرني ، فاقتربت منه ورحت أناوله قطع اللحم من يدي الى فمه ، وهو ينظر إلـيّ بعينين بريئتين كأنه طفل وديع . ثم جلست على الأرض ، فنزل عن الصخرة ورقد الى جانبي ، فرحتُ أغنّي له وأداعبه بالحلمسة فوق جبينه وتحت ذقنه وحول شاربيه حتى استأنس ومدّ رأسه ووضعه على ركبتي واستسلم الى نوم عميقٍ ، عندئذٍ . . يا حضرة الشيخ ، تجرّأت ومددت يدي الى شاربه . .

فصاح الشيخ :

ـ كفى ! **إن التي تستطيع تنييم الضبع على ركبتها لا تعجز عن تنييم زوجها على مخدّتها !**

وصار جواب الشيخ مثلاً يُضرب كلّما ناسبته المناسبة .



حَيَّـة بالكْوارَة

كان مصطفى الشمّاع قاضياً في مرجعيون ، وكان يروي لنا أنه كان يوماً ، ينظر في دعوى طلاق ، وسأل الزوج لماذا طلّق زوجته .

فشقل الرجل زوجته بنظره ، وقال :

ـ لأن المثل بيقول :

« **حيّه بالكواره[1] ولا مرا قهّاره !** »

---

(١) الكوارة هي وعاء ثابت داخل الجدار يُخزن فيه الطحين أو بعض المؤن الأخرى .

المثل : قَلَّ ودَلَّ

أنفقت عمري في وظائف الدولة دون أن أحصل على ترقية استثنائية ، لأني لم أكن أحمل شهادة عالية ، في حين كان بعض الموظفين يتابعون دراساتهم ، خلال دوام عملهم ، ويحصلون على شهادات تؤهّلهم للترقيات الاستثنائية ، فشعرت أن قيمتي قلّت ومقامي انخفض .

ولجأت الى الشيخ فريد الدحداح ، رئيس مجلس الخدمة المدنية أسأله عن وسيلة لتحسين أوضاعي ، بالنسبة الى كفاءاتي وخدماتي ، فراح ينبش الملفات ويقرأ لي القرارات والقوانين والبلاغات ، ليقنعني أن الدولة على حقّ في ترقية أصحاب الشهادات دون أصحاب الكفاءات والخدمات .

وعندما خرجت من مجلس الخدمة التقيت رجلاً قروياً ، من أبناء الجنوب ، فشكوت له سوء حالتي ، قلت ان مَنْ هم أصغر مني عمراً صاروا أرفع مني قدراً ، لأنهم يحملون شهادات عالية .

قال الرجل بكل عفوية وبراءة :

— هذا حقّ ، فالمثل يقول :

إذا ارتفع سعر الشعير بيهبط سعر الحمير .

قلت له :

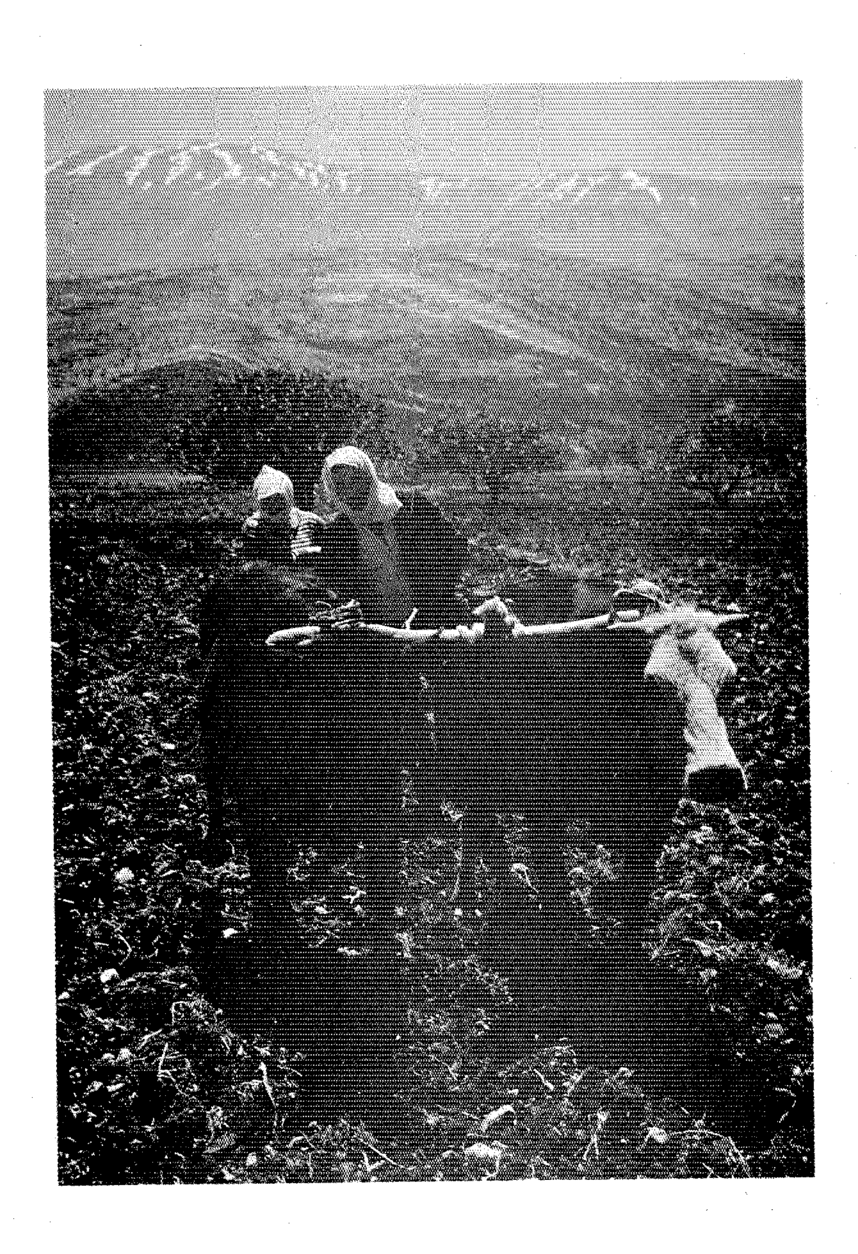
ـ سامحك الله .

وقفلت راجعاً ودخلت على الشيخ فريد وقلت له :

ـ إني اقتنعت أخيراً ، ان الدولة على حقّ ، فقد التقيت الآن ، رجلاً قروياً من بلادي حكم لمصلحة الدولة وأقنعني بمَثَل شعبي بسيط ما عجزت عنه جميع القوانين والقرارات والبلاغات الموجودة في مجلسكم الكريم ، والمثل يقول : اذا ارتفع سعر الشعير بيهبط سعر الحمير .

فتمعّن الشيخ فريد بمضمون المثل ، ثم قال :

ـ لو جمعنا كل علماء الاقتصاد وطلبنا منهم ان يضعوا لنا قاعدة مختصرة تحدّد العلاقة بين غزارة الانتاج وهبوط الأسعار ـ او العكس بالعكس ـ لما استطاعوا ان يجدوا أبلغ من هذا المثل لهذه المعادلة .







القسم الأول

الأدب الشعبي على ألسنة الناس

كيف يفهمونه! كيف يتعاملون معه
كيف يدخل في حياتهم ويتفاعل في ممارساتهم!



أبو فرجٍ أفهم من أفلاطون

في أيّام شبابي تعاطيت مع أقوال الفلاسفة والمتفلسفين ، وقبضت حذلقات وتخرّصات كثيرة كنت أتعامل بها في مجالسي وأستعيرها ، أحيانا ، لأجعل كلامي فصل الخطاب ، كلّما احتدم سؤال بجواب .

وجرى الحديث ، يوماً ، عن الانسان ، هذا المخلوق العجيب الغريب ، وتشعّبت الآراء وتناقضت النظريّات ، وخُيّل إليَّ ان الرأي الأخير يجب ان يكون لي ، فاستويت ورفعت ساقاً على ساق ، وقلت :

— يقول أفلاطون ، أبو الفلاسفة : « الانسان حيوان ناطق » ، لا أكثر ولا أقلّ ، فاذا نطق الحيوان تساوى مع الانسان .

فتناولني « أبو فرج » وهو معّاز من قريتي ، قال :

— ومن هو هذا أبو الفلاسفة الذي تكلمت عنه الآن ؟

قلت :

— ألم تسمع قبلاً ، بأفلاطون الفيلسوف العظيم الذي عاش قبل المسيح ، وما زالت أقواله صالحة للتعامل بها مثل ليرات الذهب !

قال أبو فرج :

ـ لا لا أبو الفلاسفة هذا غلطان ، فإذا أردت تعريفاً صحيحاً بالانسان ، فخبره عندي .

فابتسمت مستهجناً وقلت :

ـ وما هو الانسان إذن ، حسب خبرتك ، يا أخ أبو فرج ؟

قال :

ـ حسب خبرتي « **الانسان حيوان كذّاب** » ، لا أكثر ولا أقلّ . فاذا استطاع الحيوان ان يتعلّم الكذب ، صار بإمكانه ان يتكلّم ، لأن الكلام أكثره « كـذب بكذب » ، وصـار بإمكانه أن يسوق السيارة وينظم الشعر ويجلس معك ومعي ـ بلا مؤاخذة ـ ويتكلّم عن الفلسفة .

كنت لا أزال أرفع ساقاً على ساق ، قدّام أبو فرج ، فتهيّبتُ وجلست « ساقاً الى ساق » ، وقلت في نفسي ، هذه مصيبة جديدة لم تخطر لي يوماً على بال . . « الانسان حيوان كذّاب ! » صار لنا أكثر من ألفي سنة قابضين فلسفة أفلاطون ، فكم هو مدهش ومثير حقاً ، اذا ثبت أخيراً ، ان معّاز إبل السقي استطاع تسفيه أفلاطون ، شيخ فلاسفة الزمان ، في زمان شيخوخته .

وفطنت إلى أن ابن خالتي سعيد أنفق عشر سنوات من عمره في إعداد دراسة عن فلسفة أفلاطون ، من ستمائة صفحة ، فيا

ضياع التعب ! ثم فكرت كم سيكون كبيراً عتب أصدقائي من أنصاف وأشباه الفلاسفة ، إذا علموا أنني تقاعست وتركت أفلاطون مكشوفاً على مرمى حجر من معّاز إبل السقي .

فرجعت ورفعت ساقاً على ساق أمام أبو فرج وقلت له :

ـــ وما هو برهانك على ان الحيوان لا يكذب ؟

قال أبو فرج :

ـــ خلال سنوات الحرب العالمية الأولى كانت السلطة العثمانية تجنّد الشبّان ، تجنيداً إجبارياً للحرب ، او لتسخيرهم في حفر الخنادق ، فيفرّ بعضهم خوفاً من الموت او هرباً من السخرة . وكنّا نسمّي الهارب من الجنديّة « فراري » . وكانت السلطة تلاحق الفراري وتعاقبه عقاباً قاسياً ، كما تعاقب كل من يأوي فرارياً في بيته .

وحدث أن فرارياً من بلاد بعلبك لجأ الى إبل السقي ، فآواه مواطننا الحاج متري وجعله أجيراً عنده ، بعد ان اتفق معه ، في حال وقوعه في يد السلطة ، أن يُنكر أحدهما الآخر ، رفعاً للمسؤولية .

وبعد مدّة انكشف أمر الفراري ، فهرب الى راشيا الفخار . وبعد سنة تقريباً وقع في قبضة ضابط مرجعيون فهمي آغا القره شلّي ، الذي قال له :

ـ إذن أنت أجير الحاج متري !

قال الشاب :

ـ لا والله . أنا لا أعرف الحاج متري ولا أعرف عنه شيئاً .

فجاء به فهمي آغا الى إبل السقي ، ونادى الحاج متري وسأله عن الشاب . فأنكر الحاج معرفته به . ثم استدعى فهمي آغا امرأة الحاج وسألها عن الشاب فتجاهلته . ثم استدعى فهمي آغا أولاد الحاج متري الأربعة الذين أكدوا ، كذلك ، أنهم لا يعرفون الشاب أبداً .

وحانت من فهمي آغا التفاتة فلاحظ وجود كلب يقف جانباً وهو يُنوعص ويهزّ ذيله مسلّماً ومرحّباً .

فقبض فهمي آغا على عنق الحاج متري وقال له :

ـ يا كذّاب ! علمّت زوجتك وأولادك ان يكذبوا ، لكنّك لا تستطيع ان تعلّم الكلب ان يكذب .

وأمر فهمي آغا الشاب أن يتقدّم نحو الكلب الذي وثب اليه معانقاً عناق الأحباب بعد طول غياب .

★★★

وقبل أن ينهي أبو فرج حكايته أنزلتُ ساقي عن أختها واحتشمت وقلت :

ـ الله يكون بعون أفلاطون على هالمصيبه !

رصاصة أبو خطار خرمت[1]

يُظنّ أن كلمة « ثورة » مشتقّة من « ثور » ، وهي تعني فورة الغضب عند الثور . والواقع ان الثور مخلوق مطيع دؤوب صبور بطيء الاحساس يساق بالمنساس[2] ، فلا يغضب ولا يثور ، إلا في حالة واحدة فقط ، وهي عندما يسمع طنين حشرة « القيقوبة » من بعيد ، فتصيبه فورة من الجنون ، ويقطع وثاقه مهما كان متيناً ، ويكسر نيره مهما كان مكيناً ، ويشرد بسرعة آخذاً برأسه كل ما يعترض سبيله . فيقال في مثل هذه الحالة : « قيقب الثور » ، أي أنه ثار وهرب بسرعة من وجه القيقوبة .

فمَن هي هذه الحشرة العظيمة . . اللئيمة ؟

القيقوبة هي حشرة مجنّحة بحجم النحلة تقريباً ترسل طنينها قدّامها ، كما تفعل البعوضة ، فاذا تمكنت من ظهر الثور دسّت بيوضها تحت جلده ، ولا تلبث هذه البيوض ان تنقف وتخرج منها يرقات تعيش تحت جلد الثور وتقتات من دمه وتسبّب

---

(١) خَرَمت الرصاصة أي أنها لم تصب هدفها .

(٢) المنساس قضيب طويل في رأسه مسمار ، ينخس الفلاح به مؤخر الثور ، ليوجهه ذات اليمين أو ذات الشمال .

له ألماً دائماً الى ان تصير كل يرقة شرنقة ، وتصير كل شرنقة حشرة تنخر جلد الثور من الداخل ، وتخرج منه لتصير « قيقوبة » تعاود سيرتها العاطلة مع الثور ، وهكذا دواليك .

ويكثر ظهور القيقوب في شهر أيّار ، فاذا خرج الفلاح ليفلح أرضه في شهر أيّار ، أخذ ابنه ، او أجيره معه ليمشي قرب الفدان ، ذهاباً وإياباً ، وفي يده مكنسة او ما أشبه يُلَولِح بها حول الفدّان ، درءاً لخطر مهاجمة القيقوب .

وللقيقوبة دور في أحاديث القرويين ، فهم يستعيرونها أحياناً ، ليقولوا : « قيقب فلان » . أو « قيقبت الجماعة » ، أو غير ذلك . ومن أشهر حكايات القيقوب في الأدب الشعبي ، حكاية : « رصاصة أبو خطّار ، خَرَمَت » .

ــ كان أبو خطّار فلّاحاً ، فخرج يوماً ، ليفلح أرضه ، ومعه ابنه خطّار الذي حمل غصناً راح يُوَهْوِل به حول الفدّان لتنقيز القيقوبة . لكن القيقوبة تواقحت كثيراً وراحت تكرّ وتفرّ . . والفدّان يسبطرّ ويشمخرّ . . وخطّار يكافح وينافح . . ولا يستقرّ ، حتى فرغ صبر ابو خطّار ، وهو رجل مغوار ، لا يُصطلى له بنار ، فعمد الى بندقيته المعلّقة بشجرة الزيتون ، وراح يترصّد حركات القيقوبة .

ولم يطل الوقت حتى هتف خطّار وأومأ مشيراً بإصبعه ، الى ان القيقوبة استقرّت على صدره ، فقال له أبوه : « إياك ان

تتحرك لئلا تطير ! »

وصوّب أبو خطّار رصاصته الى حيث كانت القيقوبة ، على صدر ابنه خطّار . . فسقط خطّار مضرّجاً بدمه ، ونفضت القيقوبة جانحيها وطارت .

فرمى ابو خطار البندقية من يده ، وألقى نظرة على ابنه المقتول ، وقال :

ــ مش قاهرتني لقحتو قدّ الحمار بالشمس ، قدّ ما قاهرتني قولة الناس « **رصاصة أبو خطّار ، خَرَمت !** »

عميان القلوب

عاشت في قريتنا امرأة عمياء منذ ولادتها ، لكنها كانت نيّرة الذهن سريعة الخاطر . وكانت تزور كل بيت في القرية ، في النهار ، كما في الليل ، فلا تُخطىء ولا تضطرّ إلى سؤال . رأيناها في إحدى الليالي المظلمة تعود الى بيتها وبيدها فنار يضيء على ما حولها ، فقلنا لها :

ــ الله أغناكِ عن النور بنعمة البصيرة ، فلماذا تحملين هذا الفنار المنار ؟

قالت : أريد ان أُضيء طريقي أمام عميان القلوب ، لئلا يعثر أحدهم بي ويؤذيني .

المصالحة شيء والمقابحة شيء آخر

كان « أبو طشطش » في زمان شبابه من كرام القوم ، لكن لما تقادمت سنّه استضعفته زوجته واستحكمت عليه وصارت تتمقطع فيه ، لسبب ولغير سبب .

وحدث أنها كانت تكنس ردهة بيتها ، في إحدى ساعات حمقها ، ومرّ أبو طشطش متمهّلاً ، فتناولته بمكنسة على رأسه ، وبأخرى على ظهره ، وعيّرته بقلة المروءة ، فخرج مكسور الخاطر لا يلوي على شيء .

في الطريق التقاه « أبو عوكر » ولاحظ أنه شارد الذهن ، فسأله :

ـ وماذا الذي عوكر صباحك يا أخي أبو طشطش ، أنا صديقك ، مشكى ضيمك ، والصديق لوقت الضيق ، لعلّي أستطيع أن أساعدك .

فتأوّه أبو طشطش وقال :

ـ امرأتي أم طشطش ، ولا خفاك الأمر . .

قال أبو عوكر :

ـ كفى ! اختلفت مع زوجتك ، تعال معي فأصلح بينكما !

ومضى أبو عوكر ومعه أبو طشطش الى بيته وكانت أم طشطش ما زالت تكنس فناء الدار ، فقال لها أبو عوكر :

ـ ولو يا أم طشطش ، لما كان ابو طشطش في عزّ الشباب ، مثل فرخ العقاب ، كنتِ تقولين له : يا حبيبي ونور عيني . أما الآن وقد زادت شيبته وقلّت هيبته وفرغت جيبته وشطّت ريلته ، فصرتِ تكشين بوجهه وتتطاولين عليه !

واقترب أبو عوكر قليلاً وأضاف :

ـ عندما كان أبو طشطش ، جسمه مثل الرمح ووجهه مثل الصبح ، كنتِ ترحّبين به كلما أقبل . أمّا الآن وقد أصبح «**شفّه وطا وشفّه غطا**» وصار ظهره مثل قوس الندافه وأنفه مثل سدّان السكافه ، لا قدّ ولا جَدّ ولا لطافه ، صرتِ تقولين له : يا مطشّن ! يا مكشّن ! يا قليل الخواص .

واسترسل أبو مخلوف في كلامه قال :

ـ واليوم ، عندما هرّ شعره وانحنى ظهره وبرد قعره وقلّ قدره ، وهرهر واهترا ، من قدّام ومن ورا ، وما عاد يعرف الزلمي من المرا . .

فصرخ به أبو طشطش :

ـ كفى ! يا قليل الدين . . **هذي مصالحه يمّا مقابحه !**

هَيك دَعْوى بدّها هيك شهودْ

كان علي الضاوي بائع خضار متجوِّلاً على ظهر حمار ، لكن اهتمامه ببيع خضراواته كان أقلّ من اهتمامه بترويج حكاياته ، حدثني ، قال :

ــ يُحكى ان رجلاً كان يسهر مع زوجته على المصطبة امام باب بيته ، وكان عنده خروف معلوف مربوطاً جانباً ، وكلب اسمه « صنصيل » يرقد قرب الباب . وكانت المرأة حبلى ، في لياليها الأخيرة ، فقال لها زوجها :

ــ إذا ولدتِ لي ابناً أذبح لك الخروف ، وإذا ولدتِ لي بنتاً أذبح لكِ الكلب .

وكان « صنصيل » يُعطي أذنه للحديث ، قال لنفسه :

ــ الحرمه رايحه بالعرض ، وبتتورَّك عاليمين ، وكتفها الشمال قاشط ، شوفتي معها بنت ، إلحق حالك يا صنصيل وافركها ، بلاد الله واسعه .

وعندما نام الرجل وزوجته نهض صنصيل وأيقظ الخروف وودّعه ، بعدما أطلعه . . قال الخروف :

ـ ولعلّ المرأة غيّرت رأيها وولدتْ صبياً ، عندئذٍ يعلّقني الرجل بكرعوبي ويفصفص لحمي عن عظمي .

وطلب الخروف من الكلب ان يساعده في فكّ رباطه ، فجزّ صنصيل الحبل بأسنانه ، وقال للخروف :

ـ اتبعني على بركات الله .

ومشى صنصيل ، وهو كلب جعاري أصيل ، أنفه مرتفع وذيله منفوش طويل كأنه خرطبيل ، ومشى الخروف وراءه وهو خائف ذليل ، حتى بلغا محلّة « وادي القرقمان » ، فقال الكلب للخروف :

ـ العشب هنا كثير ، والدنيا أمامك سدح مدح ، انتظرني هنا حتى أذهب في طلب الرزق لعلّي أجد ما أقتات به ، وأعود اليك في الحال .

وحدث ان ذئباً مرّ في المكان ورأى الخروف ، فزأر وازبأرّ ونوى نيّة الشرّ ، وقال للخروف :

ـ من آذنك ان تدخل الى أرضي ؟

قال الخروف :

ـ إذا كانت هذه الأرض أرضك ، فأين شهودك لاثبات حدودك !

قال الذئب :

ـ سأذهب وأجلب شهودي ، وسيكون لي معك حساب عسير .

ولم يبتعد الذئب كثيراً حتى حظي بشرذمة من الثعالب تترنّح من الجوع فقال لها :

ـ خروف معلوف يرعى وحده في وادي القرقمان ، تعالوا معي واشهدوا ان المكان ، حيث يوجد الخروف هو لي ، فنفترسه معاً .

فطار عقل الثعالب من الفرح وشطّ ريقهم وعلا زعيقهم وراحوا يهتفون : « ملك بيّك وجدّك ! ملك بيّك وجدّك !

ومشى الذئب ومشى جمهور الثعالب وراءه وهم يُحوربون : ملك بيّك وجدك ! ملك بيّك وجدّك .

وحدث ان الضبع « أبو عامر » كان يقضي قيلولته في مغارته وسمع حوربة الثعالب ، وخرج فرأى مظاهرة ثعالبية يقودها الذئب « أبو سرحان » ، فناداه :

ـ يا ابن خالتي ! يا أبو سرحان ! متى كنت تعتمد على الثعالب في نيل المطالب ؟

قال الذئب :

ـ اعتداء على حدودي وهؤلاء شهودي .

في هذه الاثناء رجع الكلب ووجد الخروف يرتعد من الخوف ، فطيّب خاطره وقال له :

— إبقَ حيث أنت لا تخف شرّاً .

واتخذ الكلب له مجثماً خلف رجمة من الحجارة بانتظار ما يمكن ان يحدث .

وبعد قليل وصل الذئب مع شهوده الى حيث كان الخروف ، والتفت وقال لشهوده :

— يا جماعة الخير! انتم أصحاب شرف ووجدان ، ولا أطلب منكم غير الحقيقة ، أليست هذه الأرض أرضي أباً عن جدّ ، كما تعلمون ؟

فهمر « صنصيل » عندئذٍ ، من وراء الرجمة وقنفع أذنيه وفنجر عينيه وتجمهر . . فدندل الثعالب أذيالهم الى ما بين سيقانهم وقحصوا الى الوراء . . وصمتوا .

فقال الذئب :

— ما بالكم ، يا أبناء ثُعالة ، لا تتكلّمون ، أليست هذه الأرض أرضي ، وانا المالك الوحيد المتصرّف بها دون سواي ؟

فَعَرَّ صنصيلٌ وهرّ وتحفّز وهمر وزنقر واشمخرّ ، فتقدّم كبير قوم بني ثعلبة قليلاً ، وقال :

ـ نحن نعرف تمام المعرفة ، ان ذلك الجبل ، الى اليمين هو لك يا أبو سرحان ، كما أن الوادي من وراء الرجمة حتى النهر هو أيضاً لك ، أما هذه الأرض ، حيث يقف السيد الخروف ، فإننا ، يشهد الله ، لا نعرف لمن هي .

وعندما رجع الذئب ، خائباً ، مرّ قرب باب مغارة الضبع وناداه وقال له :

ـ الحق معك يا ابن خالتي :

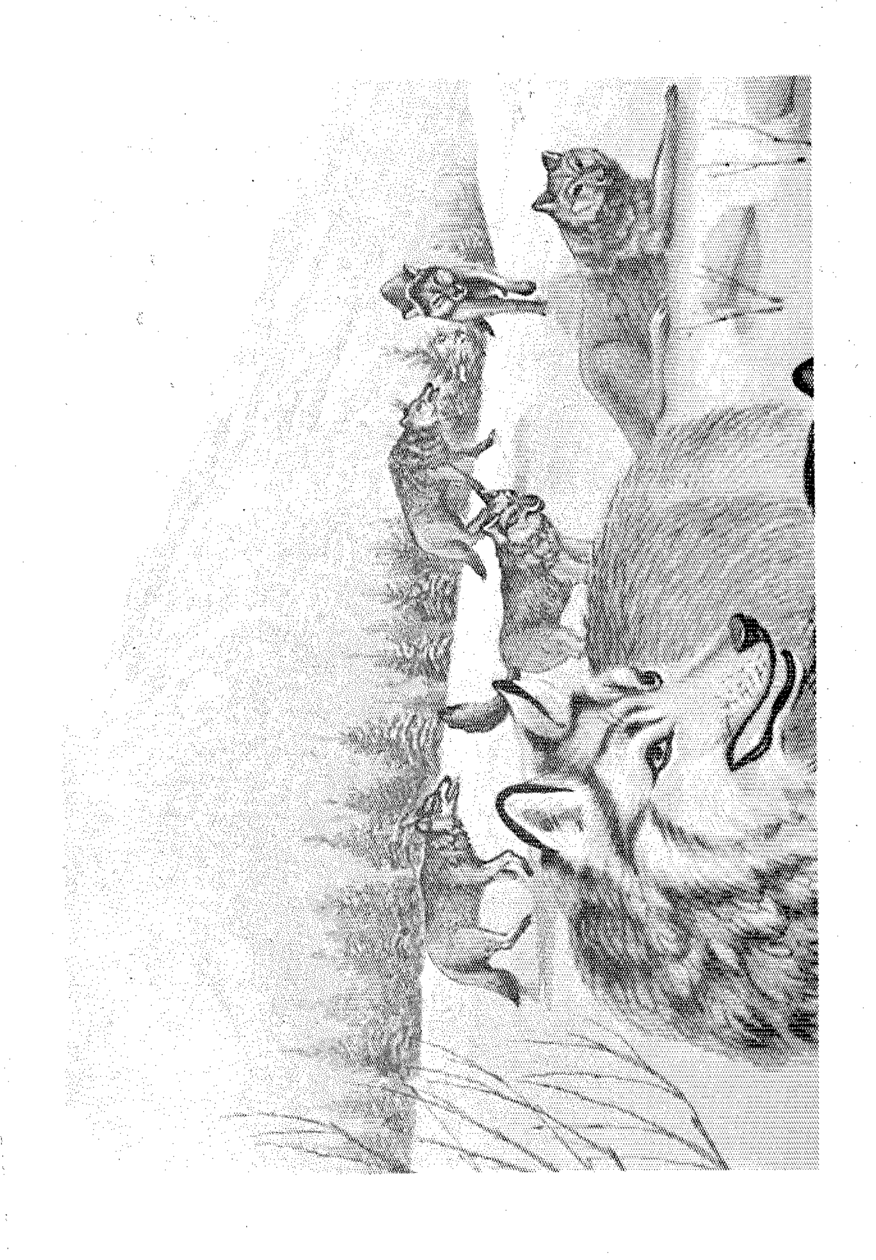
« اللي بيجعل الثعالب شهودو ، بتضيع حدودو ! »

فجرت كلمة الذئب مثلاً الى يومنا هذا .

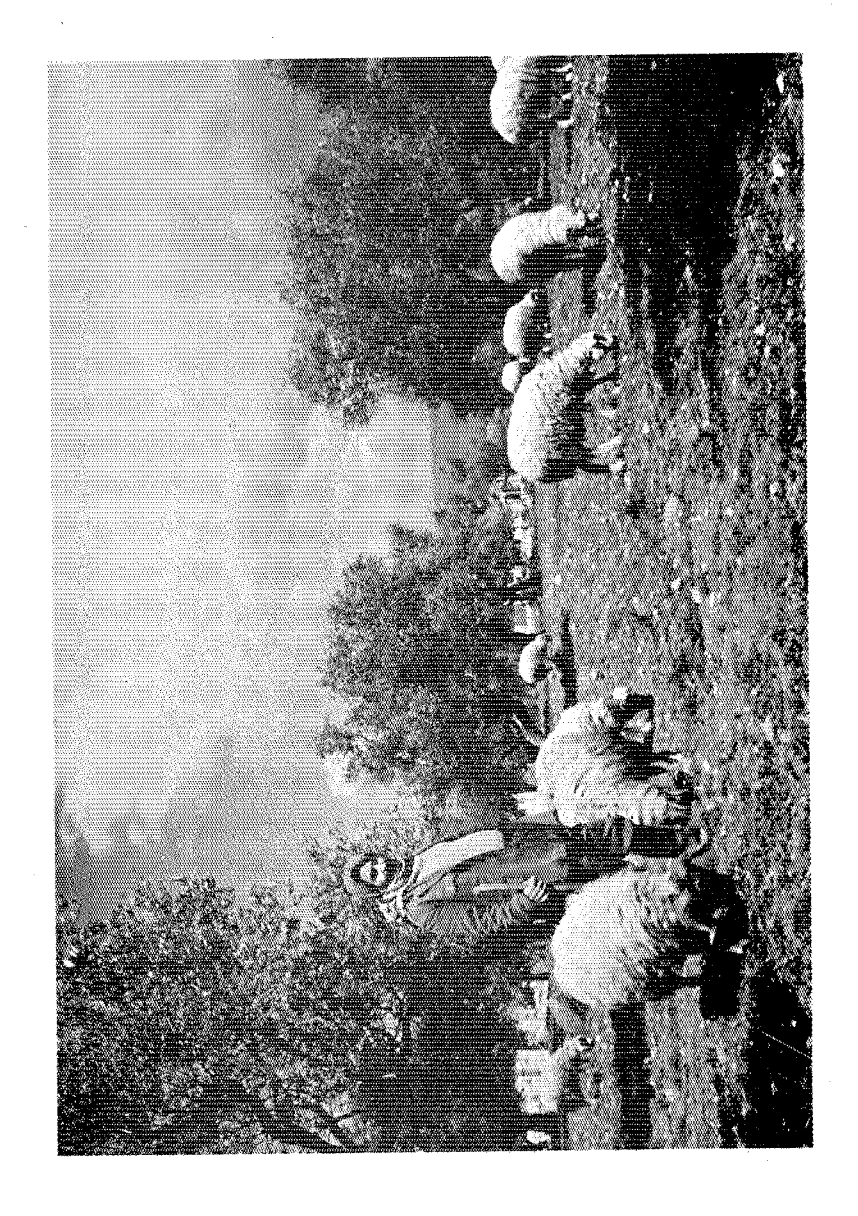
أكلنا من غلتها وقعدنا بفيتها

أبو هاشم صديق عتيق يزورنا غالباً فنكرم وفادته « ونسوق اللايق » معه لأنه من أهل اللياقة . زارنا مؤخراً وطلب منا خدمة لبّيناها له في الحال ، فقال :

ـ **الله يبارك بشجره مناكل من غلّتها ومنقعد بفيتها .**







الضّربة لمن سبق

كان أبو رشيد من جماعة « ماشي الحال » ، يختار الهزيمة على النزال ، في معارك القيل والقال . وكانت أم رشيد تُجري ، كل مساء ، جردة حساب بالمناقشات التي جرت في بحر النهار وثبت ، أخيراً ، ان الحقّ فيها كان معها ، فيوافق أبو رشيد ، بكل قناعاته ، على واقع الحال .

وفطنت أم رشيد ، في إحدى الليالي ، الى انقطاع أخبار والدتها الموجودة في احدى القرى البعيدة ، وأخذت تحرّض زوجها المذكور على الذهاب الى تلك القرية لتسقّط أخبار والدتها .. حتى نقرت جلده .

قال :

ــ ولكن الأحوال سيّئة والأمن مفقود والأشقياء يقطعون الطرق .

قالت :

ــ يسواك ما يسوى سواك ، توكّل على الله وعلى رضاي ورضا والدتي عليك ، وهو ينجّيك .

وإذ كانت وسائل الدفاع عند الرجل غير متوفّرة ، ولا

مناص عنده للخلاص ، رضخ للأمر ونهض في الصباح الباكر وأخذ طريق الوادي ، واجتاز المخاضة وسلك قادوميّة حرج البلّوط ،واذا فارس انكشاري[1] يُطل من الجنوب وسيفه يلمع على جانبه من بعيد . قال أبو رشيد :

ــ دنت ، الله ينجيني من شرّه .

ولجأ الى أقرب شجرة بلّوط صعد ليختبىء في أعاليها حاملاً معه بعض الحجارة ، للدفاع بها عن نفسه عند الاقتضاء .

ووصل الفارس الانكشاري وترجّل وربط حصانه الى جذع شجرة البلّوط وتناول من خرجه عن ظهر فرسه بعض المآكل والمشارب . وجلس وسكب وتناول حتى فرغت أوّل زجاجة أجلسها امامه وسمّاها « الله » وقال له :

ــ أنت هو الإله الذي لا يُحمد على مكروه سواه .

ثم سكب وشرب حتى فرغت زجاجة ثانية أجلسها أمامه وسمّاها « آدم » وقال له :

ــ لعلّك كنت من أوادم الرجال حتى سمّوك آدم .

وما لبث أن أتى على زجاجة ثالثة أجلسها امامه وسمّاها

---

(١) كلمة إنكشاري تركية معناها جندي مميّز وقد اشتهر الانكشاري بالتعدّي والاستبداد .

« حوّاء » ، ودقر عندها ، ثم شقلبها بنظره من تحت الى فوق وقال لها :

ــ لا بدّ من وجود أواصر قرابة بينك وبين الحيّة حتى سمّوك « حوّاء » . . قولي لي أيتها المرأة السيّئة السيرة ماذا قالت لك الحيّة تحت شجرة المعرفة ، بل ماذا أوحى اليكِ شكل الحيّة عندما تمطّت وأطنبت رأسها فوق عنقها ولبلبت ، حتى حرّكت شهيّتك الى الإثم ، فانعطفتِ ، في الحال ، على آدم الآدمي الطيب القلب ، وأغريته بارتكاب المعصية . . إني سأثأر منكِ باسم جميع رجال الدنيا ، ولو بعد فوات الأوان .

وسحب الانكشاري سيفه وضرب حوّاء المتمثّلة بشكل زجاجة ، أمامه ، فسحقها .

وكان ابو رشيد يرى ويسمع ، وكاد أن يهتف مؤيّداً عمل الانكشاري ، الذي تجرّع جرعة جديدة والتفت الى آدم المتمثّل بشكل زجاجة وقال له :

ــ ها أنذا قد انتقمت لكرامتك من زوجتك التي أوقعتك في الخطيئة . . ولكن أين كان عقلك وأين كانت مروءتك ! وكيف أعطيت أذنك لزوجتك ، وقديماً قيل : « **المرأة أمّارة بالسوء** » ، حتى غضب الله عليك وطردك من الجنة ، إن ضعف إرادتك وسلامة طويّتك لا يعفيانك من المسؤولية .

وأخذ الانكشاري سيفه وضرب آدم فسحقه .

ثم أجهز على ما تبقّى من شراب ، حتى صار لا يعرف الخطأ من الصواب ، ورفع نظره الى الله عزّ وجلّ وقال له :

ــ وأنت أيّها الإله العظيم الحكيم ، ما هي حكمتك في خلق شجرة معرفة الخير والشرّ ، في وسط الجنّة ، وجعل ثمرها شهيّاً ومستطاباً ، حتى أوقعت آدم وحوّاء في التجربة . وكيف اعتبرت المعرفة ، إذن ، خطيئة والجهل فضيلة . وأين هي عدالتك عندما حاسبت آدم على خطيئته ، ثم أخذتنا جميعاً بجريرته ، فجعلتنا من المتعبين المحرومين لا نأكل خبزنا إلا بعرق الجبين . هذا ظلم ويجب ان يأخذ الحقّ مجراه .

ووضع الانكشاري يده على قبضة سيفه . . لكن أبو رشيد كان له بالمرصاد وعاجله بضربة حجر في جبينه وأخرى في صدغه فأرداه قتيلاً .

ثم هبط أبو رشيد من الشجرة وبادر الى الخرج المربوط الى ظهر الجواد ، وإذا فيه نقود وأشياء ثمينة . فتقلّد سيف الانكشاري واعتلى صهوة جواده ورجع الى بيته غانماً ، وألقى الخرج بما فيه ، بين يدي زوجته .

فذهلت أم رشيد قليلاً ثم قالت :

ــ هذا بفضل صلاتي ، فمنذ تركتني وأنا أصلّي لله ان يحفظك وينجّيك .

فهمر ابو رشيد في وجه زوجته وقال لها :

ـ الله ! . . ينجِّيني ! . . لا لا يا أم رشيد أنا الذي نجّيته ، **لولا حجاري قتلو الانكشاري .**

فجرى جواب أبو رشيد مجرى الأمثال الى يومنا هذا .



الهِندام على قدّ المقـام

الأدب الشعبي يرمز الى العادات والتقاليد ومنها اللياقة التي امتاز بها الشعب اللبناني .

فخلال عملي كموظف في المصلحة الوطنية للتعمير ، ذهبت يوماً في مهمّة الى إحدى قرى البقاع الغربي ، ودخلت الى بيت المختار ، حيث استقبلني ابنه وأدخلني الى غرفة الاستقبال ، وولج باباً داخلياً ونادى أباه .

فحضر المختار ، وكان يلبس شروالاً وقميصاً ـ الدنيا صيف ـ وسلّم وحملق في وجهي ، كأنه يريد ان يعرف من أنا وما هو شأني ، في أقصر وقت ممكن .

قلت :

ـ انا سلام الراسي موظف في المصلحة الوطنية للتعمير .

قال : « تشرّفنا » ، ونادى ابنه :

ـ يا صبي ، اعطني الجاكيت !

ولبس الجاكيت وجلس متقلقزاً .

ثم قلت له انني مُخوّل بتمليك البيوت الشعبية التي بنتها

الدولة في قريته ، فقال : « زدنا شرف » ، ونادى ابنه مجدداً :

ــ يا صبي ، هات العبايه !

وعبّأ نفسه بالعباءة وجلس قبالتي محتمشاً وقال :

ــ أمر سيدنا !

قلت :

ــ عفواً ، ولكنني أسألك فقل لي ، لقد استقبلتني بالقميص ، ولما علمت انني موظف لبست الجاكيت وعندما علمت أهمّية مهمّتي لبست العباءة ، فما هو السبب ؟

قال :

ــ ولو ، سلامة معرفتك ،« **الهندام على قد المقام** » .

الحكي، نصٌّ صحيح، ونصٌّ تمليح

.. ولعلع الرصاص وأنا في عرض الشارع . بيتي بعيد وأنا وحيد . ورأيتُ عابري السبيل يتراكضون فركضت وراءهم ، ولاذوا في مدخل إحدى البنايات ، فلذتُ معهم .

في أوّل الدرج ، في مدخل البناية ، وقف رجل عتعيت يزيد قياس محيط كرشه عن قياس طول قامته . لكن ضخامة صوته كانت تطغى على ضخامة بطنه ، وما لبث ان صرخ بالنسوة اللائذات معنا :

ـــ سَمَع يا نسوان ! حتى نقدر نشغّل عقلنا ونعرف كيف بدنا نتسيسر !

كان العرق يتصبب من جبيني ، مع ذلك شعرت بطراوة ارتياح إزاء هذا الرجل . إنه يتكلّم بصيغة الجموع ويتبرّع بتشغيل عقله بالنيابة عنا جميعاً .

ودخلت امرأة مسرعة وقالت :

ـــ دخيلك يا حاج ! البنت بعدها ما رجعت .

فزجرها الحاج وأمرها ان تقف في زاوية الحريم ، ففطنتُ الى

أنني يجب إذن أن ألوذ في زاوية الرجال ، هكذا تقضي الأصول ، حتى عند مواجهة خطر الموت .

وبدأ الرجل يتعاظم في نظري ، فالنساء ليس لها كلام في مقامه ، ولا سيّما إذا كان الموقف حرجاً ويحتاج الى ضرب أخماس في أسداس ، فقد يسبب التخبيص في الكلام عوكرةً في الخواطر .

وقلت ، لعل الرجل يكون عظيماً ، فإذا اقعَوعَرت قامته واصلَولَعت هامته واخشَوشَنت حنجرته واقشَوشر ماء وجهه صار بإمكانه أن يكون عظيماً في عين نفسه .

وفيما أنا منصرف الى البحث عن كلمات تتضمّن معاني الفخفخة أقبل شاب وهو يلهث من التعب ، فسأله الحاج عما يحدث في الخارج ، قال :

ــ نزلنا . . صوت . . . ناس وقواس مدري كيف . . . هيك مدري شو ، شو صار يمكن يكون صار . . . نجينا يا رب . . . بس الواحد . . .

فانتهره الحاج :

ــ بيكفي ! حاج تلوص وتعوص مثل الكلب اللي بالع « مسمطه » ، لا قادر يدفشها نزول ولا قادر يدفشها طلوع .

وبالرغم من اشتداد القصف ، آنئذ ، شغلتني صورة الكلب

الذي بلع المسمطة ، فقد كانت والدتي تستعمل المسمطة - وهي قطعة قماش خشنة - لتنظيف الطناجر ، وقد تعلق فيها رائحة الطعام ، فإذا جاع الكلب وحظي بها التهمها ، وقد تعلق في زرادیمه فیلوص ويعوص ، على حد تعبير الرجل .

ودخل بعدئذ ، شاب ودون ان يسأله الحاج عما يحدث قال :

ــ دار القواس ، أوّل رصاصه : إشاره . تاني رصاصه : جواب . تالت رصاصه : يا ناس يا هو . قلت فيها وما فيها . . نزلت لقّيت الكوع ، قتيل بارودتو قدّامو ، خلعتها ، فيها ثلاث خرطوشات ، « قطشت قرعه » وأخذت استحكام ورا الحيط . نفدوا الجماعه . لطشت الأول قَلَب . لطشت الثاني حَمَل . لطشت الثالث خَرَمت الرصاصه . صارت الباروده بلا رصاص . سندتها عالحيط وخلّيت راسها مبيّن حتى مين ما إجا يقول « كمين » .

فناوله الحاج سيكارة وقال له :

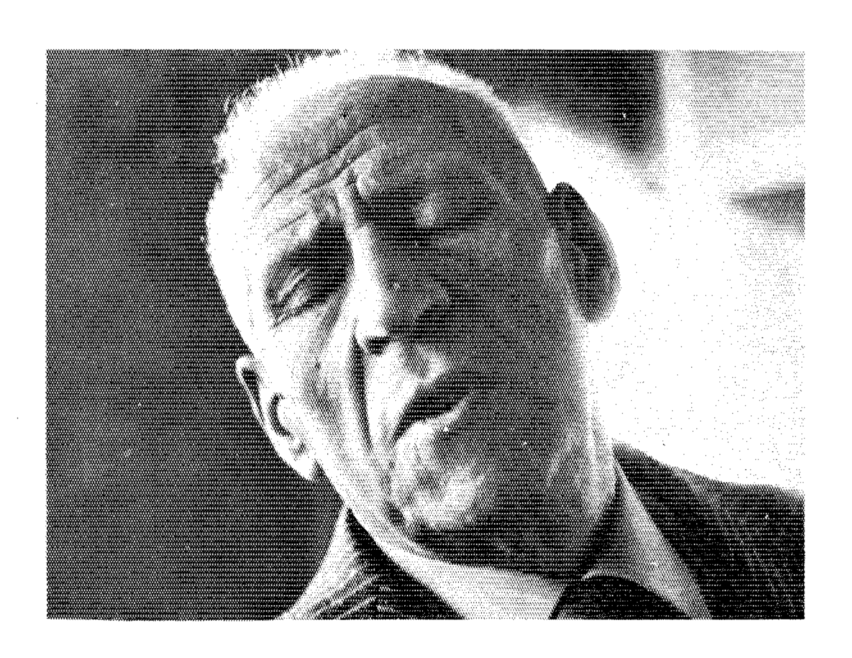
ــ تسلم ملافظك ! بس شوف يا ابني ، **أصول الحكي يكون : نصّو صحيح ونصّو تمليح !**



المعلّم جريس المقدسي

لا يجوز ولا يمكن ان يُفتح ملفّ الأدب الشعبي في لبنان ، بدون الاشارة ، والاشادة بذكر المعلّم جريس المقدسي ، رائد الحكاية الشعبية وأحد كبار أساتذة الجامعة الأميركية في بيروت ، في الثلث الأول من القرن الحالي .

قبل عهد المقدسي كانت الحكايات الشعبية عملة باطلة يأبى رجال الفكر ان يتعاملوا بها واعتبروها مباذل وترّهات أنفوا الهبوط الى مستواها ، فرفعها المقدسي الى مستواهم وغزا بها منابر العلم.



نجيب حنكش

يُعتبر نجيب حنكش رائد النكتة الشعبية في لبنان ، فقد تعامل معها بكل إخلاص وجعلها أدباً لا غشّ فيه ، وأكسبها حسباً ونسباً شريفاً ، وأجلسها مجالس الفكر ، وفتح أمامها أبواب رجال العلم والسياسة .

شوفة المليح تسبيح

إذا مررت في شارع الحمراء ، في بيروت ، قبيل المساء والتقيت رجلاً رُبعه حواجب ونصفه شوارب ، فقل له :

– السلام عليك يا حاج نصّار !

ولا تنسَ ان تهديَه تحيّاتي .

فالحاج نصار علامته في وجهه ، فهو يظلل خدّيه بحاجبيه ويسند رأسه بشاربيه ويمشي متلفتاً . وبالرغم من ثقل الثمانين على كتفيه « يتعنّق » ويتأنّق ويحاول ان يودّع الدنيا وعينه شبعانة منها .

داهمته يوماً ، يمشي في الشارع متلكئاً وأنظاره موزّعة بين صبيّة تذرع الرصيف وحسناء يداعب الهواء ثوبها الخفيف ، فقبضت على كتفه ، بالجرم المشهود وقلت له :

– يا حاج ! هل عندك بعد ، أضراس لأكل الحصرم ؟

أجاب :

– يا أخي **شوفة المليح** ، **تسبيح** !

قلت :

ـ وما هي علاقة المليح بالتسبيح ؟

قال :

ـ في غمرة الهموم والمتاعب ينسى الرجل خالقه ، فإذا أطلّ عليه وجهٌ حسنٌ ، هتف تلقائياً : « سبحان الذي خلق » ! . . . بذلك تكون شوفة المليح تسبيحاً لله الذي خلق المرأة وقدّمها هدية للرجل . . وهذا ما يستوجب الحمد والتسبيح حقاً .

وقبل أن ينهي الحاج نصار مرافعته فطنت الى أنني كنت قد نسيت أن أسبّح خالقي ، منذ فشخت عن الستّين ، وعقدت زندي بزند الحاج نصّار ومشينا معاً نسبّح الله في خلقه .

★★★

وسألت الحاج نصار :

ـ وما هو سرّ دهشة الرجل بالمرأة ، ولا سيّما دهشتنا نحن الشرقيين بالمرأة الجميلة .

فوقف الحاج استعداداً لكلام يستوجب الوقوف والتأمّل وقال :

ـ إن بلاد « الواق واق » التي يأتي منها الترياق هي سبع جُزُر جوّات « سبع بحور » ، وكلّ جزيرة يحكمها مارد ، فاذا اقتربت احدى السفن من احدى جزر « الواق واق » ، او مرّت إحدى الطائرات فوقها ، دعس المارد على جزيرته فتنخفض مئة ذراع

تحت سطح الماء ، وتختفي عن الأنظار حتى تبتعد السفينة ، أو الطائرة ، فيرفع المارد رجله عن الجزيرة ، فترتفع الى سطح الماء . لذلك لم يستطع العلماء ، حتى الآن ، تحديد مكان جُزُر « الواق واق » وبقيت سرّاً من أسرار الزمان .

لكن حدث أن الملك سيف بن ذي يزن[1] تصادق مع المارد « خيرقان » أحد مردة بلاد الواق واق الذي دعاه الى زيارته ، في جزيرته .

وتمشّى المارد « خيرقان » مع الملك سيف وأوقفه أمام شجرة ترياق شكلها غريب وثمرها عجيب وقال له :

— تفضّل وكُل هنيئاً مريئاً !

وقطف الملك سيف ثمرة وقشّرها ، فخرجت منها فتاة حسناء ، لا تتوشّح بغير ثوب الحياء ، وقالت : « واق واق » ، فهتف الملك سيف : « سبحان الخلّاق ! »

واستطيب الملك سيف نكهة هذا الثمر العجيب الغريب وراح يقطف ويقشّر ويهتف : « سبحان الخلّاق ! » ، حتى صار ، قدّامه ، أكثر من أربعمائة صبيّة ، ربي كما خلقتني ، مقشّرة

---

(١) الملك سيف بن ذي يزن ملك حميري طرد الأحباش من جنوبي بلاد العرب ، بمساعدة كسرى أنو شروان .. وقد نُسجت حوله أساطير طريفة جداً .

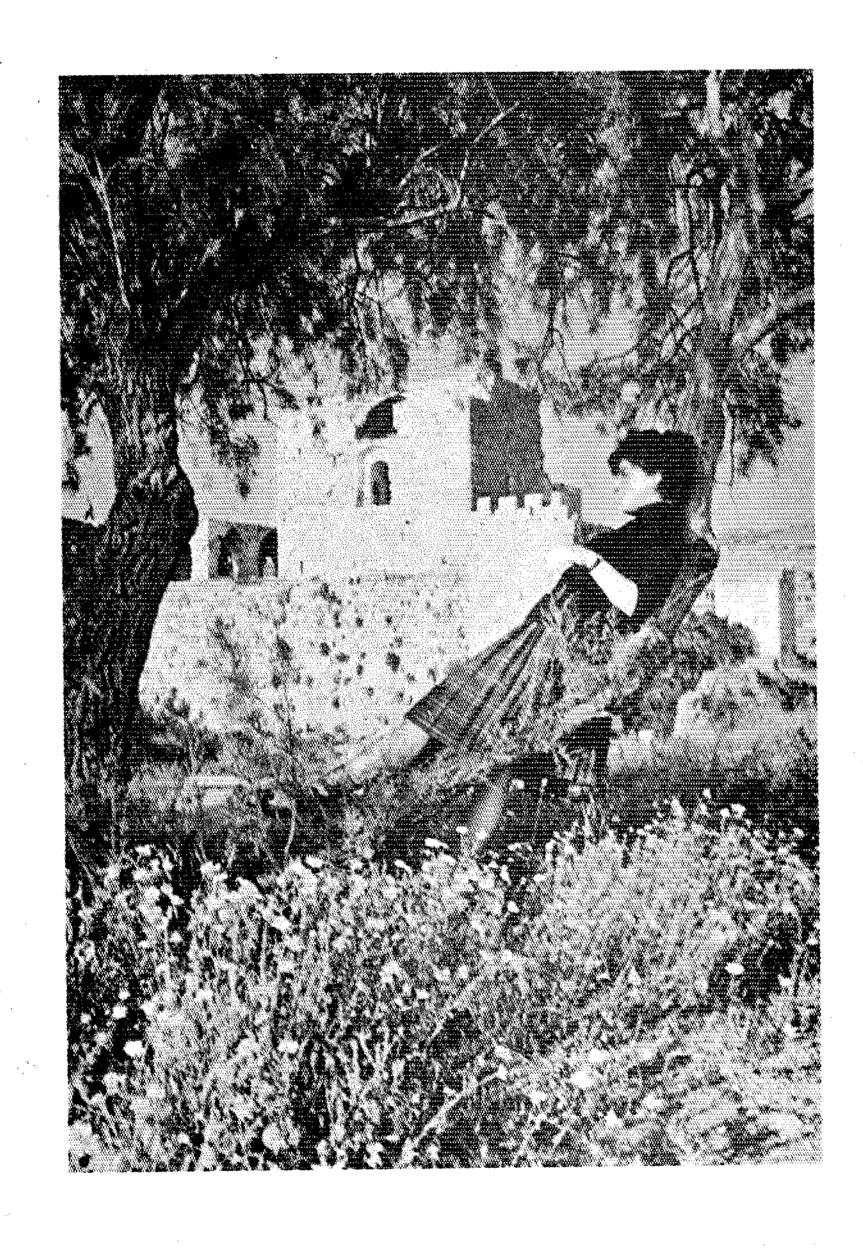
مهيّأة ، والى الطعام يا خير الأنام !

واستأذن الملك سيف من صديقه المارد « خيرقان » أن يسمح له بنقل الصبايا المقشّرات الى بلاده ، فيصبح بهذه الغنيمة أعظم ملوك زمانه ، لأن عظمة ملوك الزمان كانت تقاس بالنسبة الى عدد نسائه وجواريه وعبيده وغلمانه .

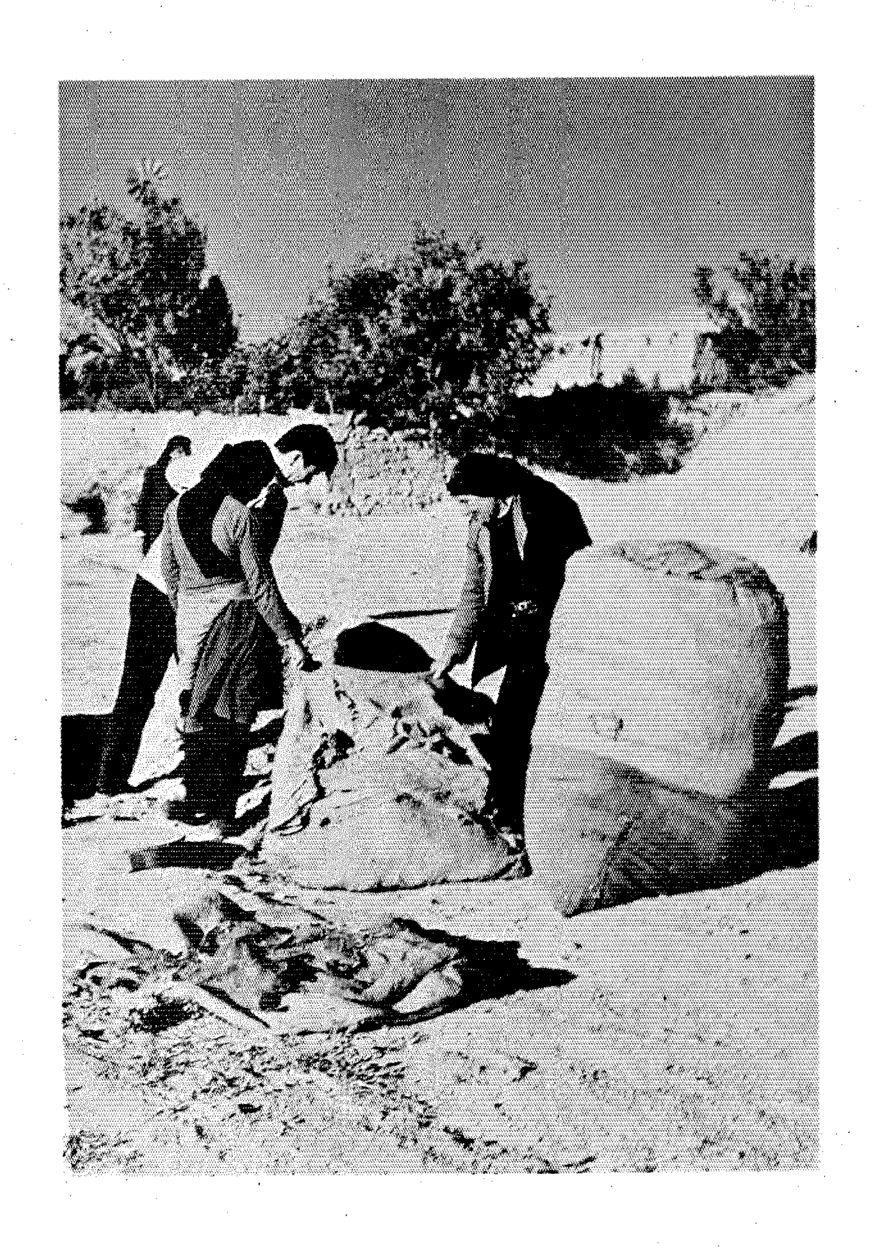
لكن الذي حدث ان الملك سيف نسي تمليح الفتيات قبل نقلهنّ الى بلاده ، فلحقهنّ طرف حموضة . . وأنتن الترياق بعد نقله من بلاد الواق واق .

ويضيف الحاج نصار :

ــ وكما ألهم الله ، الملك سيف بن ذي يزن أن يهتف أمام الشكل الحسن : « سبحان الخلّاق » ، فهو يُلهم المؤمنين بنعمته أن يهتفوا ، كلما فاجأهم وجه جميل : « سبحان الخلّاق » .







عين الخوريّة بقرش الصينيّة

قدم المطران إيليا ذيب الى إبل السقي ونزل في بيت الخوري الياس وسأل عنه ، فقالت الخوريّة :

ــ الخوري راح يفلح .

وعندما حضر الخوري قال له المطران :

ــ خوري وفلّاح ، غير ممكن ، إمّا خوري وإمّا فلاح ، عليك ان تختار !

قال الخوري :

ــ الخيره حيره يا سيّدنا ، من حيث الفلاحه ، المثل بيقول :

ــ فلاح مكفى سلطان مخفي . .

ومن حيث الخورنه ، المثل بيقول :

ــ عين الخوريّه بقرش الصينيّه ، إن ما سدّ حاجتها ، بيفكّ حكلتها .

هَمّ بُكره لَبُكرَه

كانت الأحداث في أوج احتدامها ، وكنت أركب سيّارة سرفيس فيها رجال أجهل أصلهم وفصلهم ، لكن بارك الله في أصل اللبنانيين وفصلهم ، إنهم يتعارفون بدون مقدّمات ويتسامَرون حتى في أحلك الأوقات .

وتناول راكب عن يميني حبل الحديث ، قال :

ــ ما ان خفّت حدّة القتال حتى نزلنا انا وفلان وفليتان وأبو فليتان لجمع القتلى من الشوارع . التقطنا ثمانية قتلى حشرناهم في صندوق السيارة فامتلأ . وإذا امرأة تطلّ من شباك بيتها وتصيح :

ــ المروءة يا شباب ! يا إخوان ! زوجي مقتول ومطروح قدّامي منذ أربعة أيام ! . . . فقلنا لها : صندوق السيارة « كومبله » ولا مكان فيه لقتيل آخر . . . قالت المرأة بمرارة : ولو يا جماعه ! زوجي أنتن ورائحته تملأ البيت ولا يوجد في الحي من يساعدني في نقله من هنا .

ومسح محدّثنا أنفه بكمّه وأضاف :

ـ قلت لا بل يجب ان نجد حلاً لمشكلة هذ المرأة المسكينة . . أنزلنا زوجها المقتول . .

وأشار الرجل الى رأسه وقال :

ـ ولكن هذا رأس مش بطّيخه . . أنزلنا أحد قتلى السيارة ، أعطيناه للمرأة ، وأخذنا زوجها عنها .

فصحت به :

ـ يا ويلكم من الله ، جلّ ما في الأمر أنكم أبدلتم قتيلاً بقتيل .

قال :

ـ سلامة معرفتك ! أبدلنا « قتيل بايت » « بقتيل طازه » . . المهم ، نقضي اليوم همّ اليوم ، وهمّ بُكْرَه لبُكره .

ما طلعت سلتها بلا تين

جائتني ، يوماً ، فتاة لبنانية أكملت دراستها في أميركا ، ورجعت لكي تنجز أطروحتها عن وضع المرأة الاجتماعي في الريف اللبناني ، وكانت تتأبّط ملفّاً فيه احصاءات واستنتاجات واستقصاءات شتّى حول الموضوع . لكن كان عليها ان تقوم بدراسة ميدانية تذكر فيها أسماء بعض القرى وأسماء ورسوم بعض القرويين لتعزيز أحكامها النهائية في الموضوع .

فاصطحبتُ الفتاة معي الى إحدى قرى الجنوب ، حيث حللنا عند الأخ ابو سجعان ، وهو رجل قروي كثير الكلام ، يوزّع آراءه على مَن حوله ، ويتبرّع بنصائحه للمنتصحين وغير المنتصحين .

إلا ان الأخ ابو سجعان تهيّب أمام الدفاتر والاستمارات الموجودة بين يدي الفتاة . . وصمت ، ذلك لأن الرجل القروي ، بسبب خبرته الطويلة مع المثقفين ، فقدَ ثقته بهم ، وصار يتحفّظ في مجالسهم ، ولا سيّما عندما يلجأ المثقفون الى استعمال كلمات ومصطلحات غريبة عن ثقافته .

وعبثاً حاولتُ أن أستدرج أبو سجعان الى الكلام عن مفهومه

للمرأة ، وكدنا نخرج كما دخلنا ، لكنني لاحظت ، في أثناء الحديث أن مضيفنا « تنحنح » ، فأطلّت زوجته أم سجعان من الباب ، فأومأ بجفنه وأشار بيده اشارة ذات معنى . فتوارت ، ثم ما لبثت ان عادت ومعها معجن « فتّوش » فيه فتافيت خبز مرقوق ونفاريت بصل مهروم ورذاذ من الزعتر المرشوش بالزيت ، وقالت :

ـ تفضلوا على فضلكم !

فقلت للأخ أبو سجعان :

ـ طيّب الله ثناء أم سجعان ، إنّها امرأة طيّبة وكريمة وتفهم بالاشارة .

فاستوى الرجل في مجلسه وقال :

ـ دخلك يا أستاذ ، الحرمه ، بالبيت لشو بتنعاز ؟

فدبّ الهمّ في رِكَبي ، وبلعتُ ريقي ، وقلت لنفسي ، لعلّ أبو سجعان يريد ان يمتحنني ، لكنني قوطبت عليه وقلت :

ـ صحيح الحرمه بالبيت لشو بتنعاز ؟

قال :

ـ الحرمه يا أستاذ ، بتنعاز بالبيت لثلاث شغلات . .

فارتبكت مجدّداً لحراجة الموقف ، لكن الرجل تابع كلامه قال :

ـ الحرمه بتنعاز لثلاث شغلات ، أوّل شغله : انت سيد العارفين . ثاني شغله : فهمك كفايه . ثالث شغله : منشان تستر وجه زوجها قدّام الضيوف .

ففلش جلدي على بدني ، عندئذٍ ، والتفت الى رفيقتي فوجدتها تتناول قلمها بسرعة وتكتب أن المرأة ، في الريف اللبناني « بتنعاز » لثلاث شغلات ، أول شغله : انت سيد العارفين . ثاني شغله : فهمك كفايه . ثالث شغله : منشان تستر وجه زوجها قدام الضيوف .

ولم تنسَ الفتاة أن تأخذ صورة الأخ أبو سجعان وزوجته مع معجن الفتّوش ، لتضعها ، مع هذه الحكاية ، في مقدّمة دراستها .



لا أعوجْ ولاجَالس ولاطَريّ ولا يابسْ

إذا سألنا ولداً قروياً عن أمرٍ ما ، وأراد ان يقول « لا » ، رفع رأسه ولفظ كلمة صوتية تعني « لا » .

وهذا ما تفعله « البوبانة » ، وهي عصفورة موسمية صغيرة دائمة التنقّل ، من غصن الى غصن ، وكلّما حطّت على غصن رفعت رأسها ولفظت لفظة صوتية ، تشبه لفظة الولد ، عندما يريد ان يقول « لا » .

وحدث في الأربعينات ان اصطاد ولد في إبل السقي « بوبانة » وجد حول ساقها بطاقة رقيقة مكتوب عليها ما معناه « المتحف الوطني في ستوكهلم » .

فحملت البطاقة الى الملحق الثقافي في سفارة اسوج ، الذي شكرني بحرارة وقال ان المتحف الوطني في بلاده ، ربما أراد ان يدرس حركات تنقّل هذه العصفورة الموسمية الصغيرة ، التي ثبت الآن ، ان ميدان تنقّلاتها يشمل لبنان .

فسألته اذا كان يعرف هذه العصفورة في بلاده ، أجاب بالايجاب ، ووصفها بأنها دائمة التنقّل ، من غصن الى غصن ، كأنها تفتش عن أمرٍ ما .

قلت : « هذا صحيح ! إنّها تفتّش عن غصن لا هو أعوج ولا جالس ، ولا هو طري ولا يابس » . ورويت له أسطورة البوبانة المعروفة في بلادنا ، والتي تقول ان سليمان الحكيم ، الذي ميّزه الله بفهم لغات الطيور ومعرفة خصائصها ، أراد ان يقيم أميراً على العصافير .

فجاء « أبو الحنّ » بشرواله الأحمر العريق .

ودخلت « أم سكعكع » وسكعت ومالت واختالت بثوبها الصفيق وخصرها الدقيق .

وحضر « الحسّون » وتحت إبطه قصيدة من خمسين بيتاً على البحر الطويل .

وقدمت أسراب من « الدّوري » بالزقزقة والتهليل .

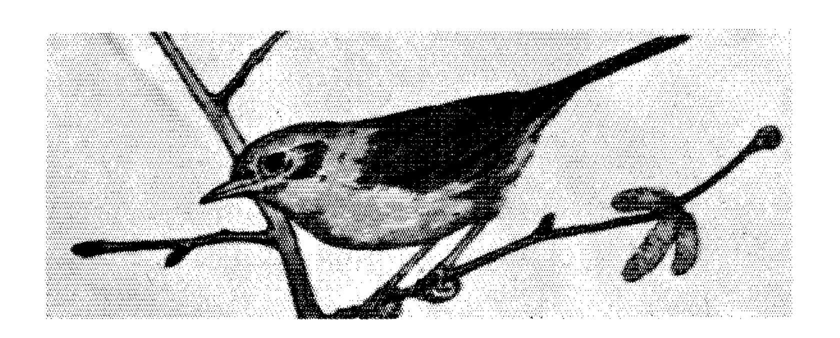
ووصلت ، أخيراً « البوبانة » وقبّلت الأرض بين يدي سليمان وقالت : « هانذا آمتك البوبانة ، أقولها بكل أمانة ، أنا ، حقّاً ، أصغر العصافير حجماً لكنني أوفرها علماً وحزماً ، فقلّدني الامارة عن استحقاق وجدارة ! »

فقال لها سليمان : « واين هو صولجان الامارة لتتقلّديها عن جدارة ، اذهبي وأتني بغصن ، **لا أعوج ولا جالس** ، **ولا طري ولا يابس** . فيكون لكِ ما طلبتِ » .

ومضت البوبانة تبحث عن الغصن المطلوب ، لتجعله صولجاناً لها ، وصارت كلما حطّت على غصن وجدته « امّا أعوج

وامّا جالس ، وامّا طري وامّا يابس » ، فترفع رأسها ، علامة الرفض ، وتقول « لا » . . ولعلّها ، بعدما أعياها البحث ، منذ أربعة آلاف سنة ، حتى الآن ، كانت في طريق العودة ، لتعرض قضيّتها ، مجدّداً ، على سليمان ، في آخر الزمان ، وما مات حقّ وراءه مطالب » .

وعندما أنهيت حكايتي ، استمهلني الملحق الثقافي لدولة أسوج ، ريثما كتب خلاصتها ، وقال : « إني أطمئنك ان علماء بلادي ، سيأخذون أسطورتكم هذه بعين الاعتبار ، ولن يفسدوا جمالها » .



شمّع الخيط وهرب

يقول أسعد فهد انه قرأ السبع لغات ولم يجد فيها ما عندنا من وفرة الأمثال الانهزامية ، مثل : « **الهريبة ثلثين المراجل** » ، « **وألف قولة جبان ولا قولة الله يرحمو** » ، « **وكل شي بدّو عزيمه إلا الهزيمه** » . وهو يروي لنا ، كذلك ، حكاية المثل القائل : « **شمّع الخيط وهرب** » ، قال :

ـ يُحكى أن ملك الزمان حكم على أحد مساكين الرجال بالاعدام ، فطلب هذا كبكوبة خيطان وقطعة شمع ، وإعطاءه وقتاً لتشميع الخيط .

وبما ان التقاليد تقضي أن يستجاب طلب المحكوم بالاعدام ، قبل إعدامه ، مهما كان الطلب ، جيء اليه بكبكوبة وقطعة شمع ، فطلب الرجل من حارسه ان يُمسك أوّل الخيط ويبتعد عنه تدريجاً ليستطيع تشميع الخيط تباعاً .

وعندما ابتعد الحارس عن الرجل وهو ممسك بأوّل الخيط ، ترك الرجل الخيط وهرب .

وعندئذ صار تشميع الخيط مقدّمة للهرب .

القسم الثاني

الأمثال

حِكمة وبَلاغة وجَمال



صاحبُ البيت أدْرى بالذي فيه

كان الشيخ موريس الجميّل من أصحاب الرؤى البعيدة ، يسبر أغوار المشاكل ويتناولها من جذورها .

وحدث أنني زرته يوماً ، برفقة الشيخ حليم طربيه ، وجرى بنا الحديث ، حول فقدان الثقة بين الشعب والدولة ، ووجوب ردم الهوّة القائمة بين الحاكم والمحكوم .

وكان الشيخ موريس ، كلما قدّم رأياً عزّزه بقول مأثور لأحد كبار علماء الاجتماع ، او تناول كتاباً في علم الاقتصاد ، أو علم السياسة ، وقرأ منه مقطعاً يتعلّق بصلب الموضوع ، وقال أخيراً :

— المهمّ أن نعرف من أين نبدأ .

وكان يوجه كلامه ، غالباً ، الى الشيخ حليم . . ثم استدرك وقال :

— ولكن ، لا بدّ ان يكون للسيد الراسي رأي في الموضوع .

قلت :

— أنا لست من جماعة العلماء ، ليكون لي رأي علمي في

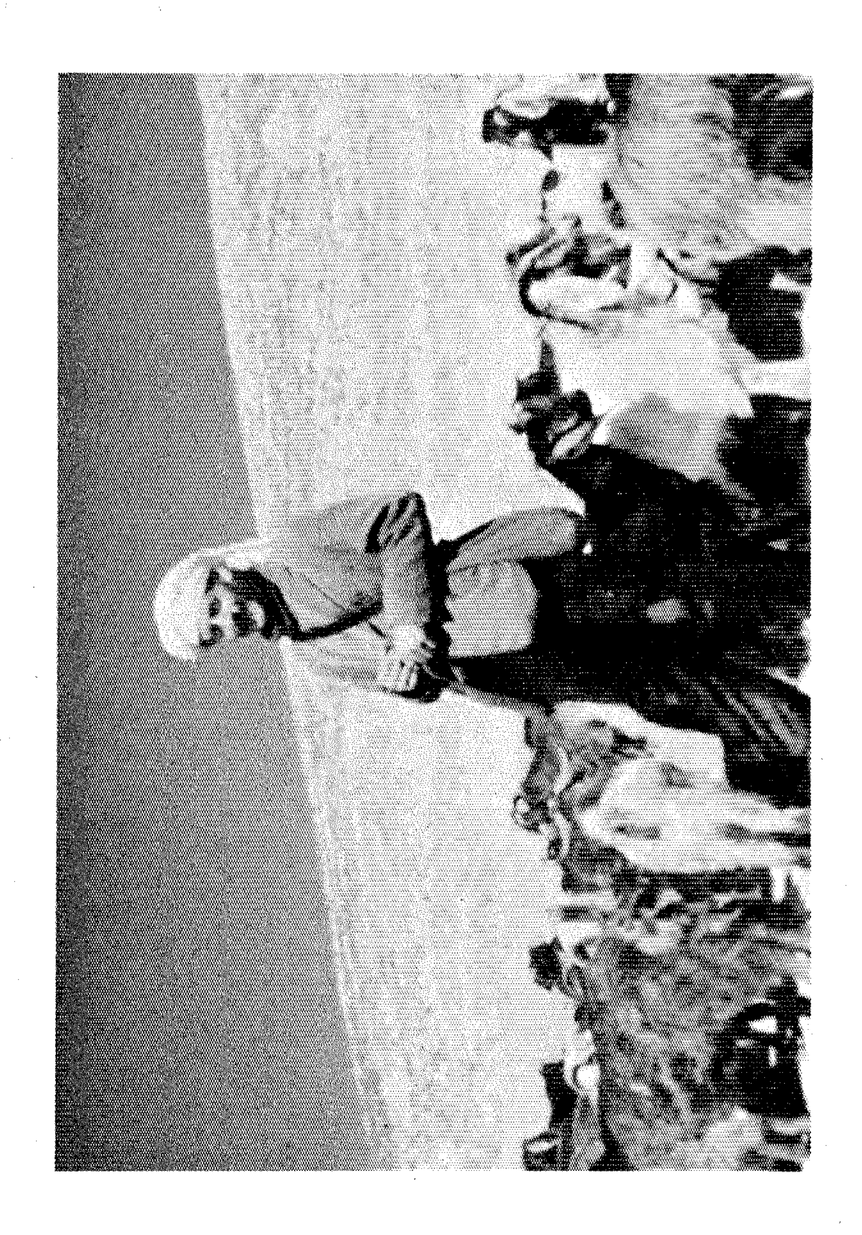
الموضوع ، ولكنني من أبناء الشعب ـ والكلام يتعلق بالشعب ـ وصاحب البيت أدرى بالذي فيه . ففي بلادي ، في جبل عامل ، مَثَل شعبي قديم يُلقي ضوءاً على المشكلة ، وهو يقول :

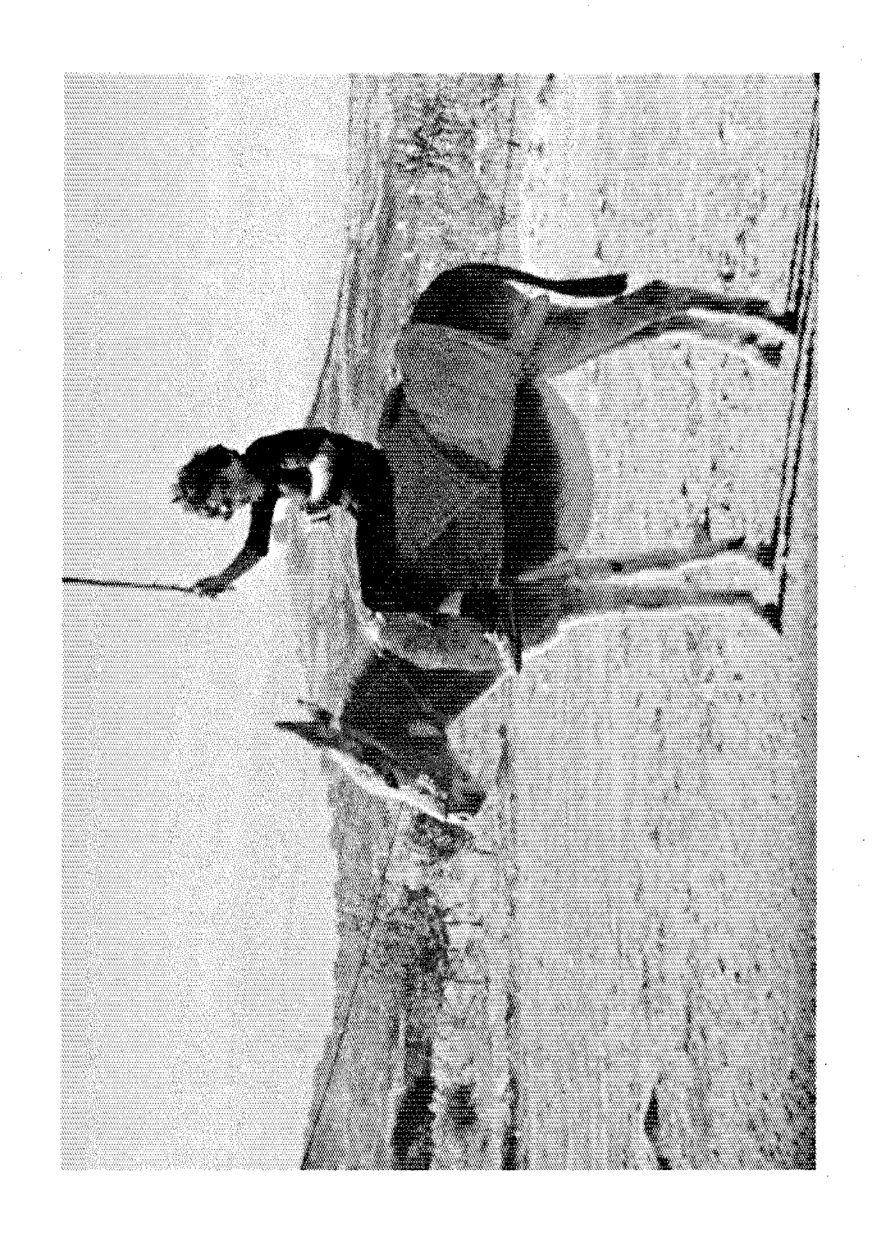
ـ **حبّ حاكمك قدّ عازتك ليه ، وبسّ تِقدر هبّط الحيط عليه !**

ثم طرحت هذا المثل أساساً للنقاش : أحبب حاكمك بمقدار حاجتك اليه ، لا حبّاً مطلقاً ، إذ لا مجال للاخلاص وصدق المودّة ، وعندما تسنح لك الظروف غافله وتسلّل من وراء الحائط واهدمه عليه ، أي فليكن الغدر سبيلك للفتك به ، بتهبيط الحائط عليه ، أما الانتفاضة او الثورة ، بمعناها الصحيح فغير موجودة في تقاليدنا الشعبية .

وقلت أخيراً :

ـ لعل هذا المثل يصلح أساساً لدراسة علميّة في وصف الهوّة القائمة بين الحاكم والمحكوم في بلادنا ، بنتيجة الكبت والقهر ، منذ عدّة أجيال ، ولا غنى لنا إذن ، عن درس الأمثال والحكايات والخبريات الشعبية ، التي لها علاقة في هذا الموضوع ، إذا أردنا ان نصل الى مكمن الداء وأصل البلاء .





المثل في خدمة العلم

في كُتبي المنشورة سابقاً ، حكايات وأمثال وخبريات تمثّل الواقع الانساني ، في لبنان . وقد تنبّه اليها بعض الباحثين ، مؤخراً ، وصاروا يرجعون إلـيّ في دراساتهم ، ويستعينون بي في تفسير بعض الظواهر والعادات والتقاليد ، في المجتمع اللبناني .

بين هؤلاء سيدة لبنانية تنجز دراستها في إحدى جامعات أميركا . وتحاول ان تجمع بعض المعلومات ، محلياً وميدانياً ، عن « وضع المرأة في جبل عامل » ، لإتمام دراستها المطلوبة ، لشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع .

وجاءت تستشيرني .

قلت لها انه من غير الممكن وضع أيّ دراسة صادقة عن وضع المرأة في بلادنا ، في معزل عن مفهوم الأدب الشعبي للمرأة . لأن الأدب الشعبي يمثّل أرضية المجتمع - كل مجتمع - ويعبّر عن خلفيّات حضارته .

وعزّزت رأيي هذا بمثل ، من أمثال جبل عامل ، يقول :

— المرا ، متى قبرت حماتها ، ونفّقت بنيّاتها ، تقعد وتمدّ جريّاتها !

ثم تولّيت شرح المثل على الوجه التالي ، وهو ان المرأة في جبل عامل ، همّها الأول ان تقبر حماتها ، أي أن تقهرها وتعذّبها ، بشتى الوسائل حتى تقبرها ، فترتاح منها . وهمّها الثاني ان ترتاح ، كذلك ، من بناتها « بتنفيقهن » ، كأنهن سلعة كاسدة وفاسدة يُراد التخلّص منها ، بأي وسيلة ممكنة . ولذلك ، استعمل المثل كلمة « بنيّات » بدلاً من « بنات » ، إمعاناً في التحقير .

وهكذا ، إذا استطاعت المرأة ان تقبر حماتها . . وأن تنفّق بنياتها . . يحق لها ان تقعد وتمدّ جريّاتها (رجليها) وتستريح . لأنها حققت إنجازاً عظيماً .

★★★

وقبل أن أفرغ من شرح المثل هتفت السيدة ، صاحبة الدراسة :

ــ هذا المثل يسدّ نصف حاجتي ، في دراستي ، ويغنيني عن زيارة عشرين قرية في جبل عامل ، لتقصّي الحقائق :

وأضافت :

ــ لو جمعنا جميع علماء الاجتماع في لبنان ، وطلبنا منهم ان يختصروا لنا موضوع المرأة في جبل عامل ، لما استطاعوا ان يوجزوا ، بكلمات ، ما أوجزه هذا المثل .

نيّال اللّي إلو مرقد عنزه في جبل لبنان

منذ ما يزيد عن مئة سنة ، قال قائل ، وفي إحدى المناسبات : « نيّال اللي إلو مرقد عنزه بجبل لبنان » . فصارت هذه العبارة مثلاً شعبياً ، بل ربّما ، أشهر مثل شعبي ، في لبنان .

من قال هذا المثل ؟ وفي أيّ مناسبة ؟

ومنذ ما يزيد عن ثلاثين سنة ، خصصت بعض اهتمامي الى جمع المأثورات الشعبية ، والى محاولة إعادتها الى أصولها التاريخية ، فصار هذا المثل من همومي المعتّقة .

أوّل مَن أمسكني « رأس الشمّوط » كان الحاج ابراهيم الحلبي ، الذي قال ان صاحب هذا المثل هو أحد زعماء آل بيهم ، في القرن الماضي . فتوجّهت بالسؤال الى المرحوم أمين بيهم الذي اعتبر نسبة هذا المثل الى آل بيهم افتراءً غير مقبول .

فنقلت المثل ، بعدئذٍ ، الى المرحومِ محمد جميل بيهم ، وهو حجّة زمانه ، في هذا الشأن ، ففكّر قليلاً ثم قال : « دع هذا المثل جانباً ، وسأروي لك إحدى حكايات آل بيهم » ، قال :

— عندما تولّى رستم باشا متصرّفية جبل لبنان سنة ١٨٧٣ كانت إحدى الشركات الفرنسية تقوم بتنفيذ مشروع جر مياه نهر الكلب

الى مدينة بيروت ، التي كانت تقع خارج حدود متصرفية جبل لبنان ، وكان لا بدّ من ان تمرّ قساطل المياه في أراضي المتصرفية ، قبل وصولها الى حدود مدينة بيروت .

ومما يستحق الذكر أن رستم باشا حرّض أصحاب الأراضي ، من أبناء متصرفيته ، حيث تمرّ قساطل المياه ، على عرقلة أعمال الشركة ، فمنعوا العمل في أملاكهم الى ان يتم تخمين الأضرار التي ستلحق بممتلكاتهم ، ودفع كامل حقوقهم .

وتألّفت لهذه الغاية لجنة ، تفرّعت عنها عدّة لجان من أبناء المتصرفية ، وهكذا بين أخذ وردّ ، تأخّر إنجاز المشروع أربع عشرة سنة ، وهو ما أثار حفيظة أهالي بيروت على رستم باشا .

في هذه الأثناء استملك رستم باشا قطعة أرض في متصرفيته تقع فوق نهر بيروت ، فجعلها جنينة خاصة غرس فيها عدة أنواع من الأشجار ، وصار يقيم فيها مجالس لهوه ، فصار اسمها جنينة الباشا ، كما بنى قربها جسراً هو جسر الباشا الذي سميّت تلك المحلة باسمه الى يومنا هذا .

ثم تبينّ أن عدة زرائب للماعز كانت موجودة حيث أنشأ رستم باشا جنينته ، أو بالقرب منها ، وهي مشاتٍ يلجأ اليها أصحاب الماعز في فصل الشتاء ، فألغيت بحكم موقعها قرب جنينة الباشا .

وحدث ان معّازاً من بيروت كان يملك إحدى تلك الزرائب ثم انقطع عنها بعد فصل متصرفية جبل لبنان عن ولاية بيروت ،

وعندما سمع بخبر جنينة الباشا فطن الى زريبته التي انقطع عنها عدة سنوات ، فصار يتحدّث عن زريبته في مجالسه حتى وصل خبرها الى الحاج حسين بيهم ، عضو مجلس النواب العثماني ، وأحد أشهر رجال السياسة في بيروت ، فاستدعى الراعي اليه ، وعندما تيقن من صحة كلامه أرسل الى رستم باشا كتاباً مضمونه : « لنا في جنينتكم زريبة ماعـز مساحتها مئة مرقد عنزة تخص الراعي فلان من رعيّتنا ، يرجى إعادة الزريبة الى حالتها ، لأن الراعي المذكور سيتوجه بقطيعه الى زريبته في وقت قريب . . » .

ففطن رستم باشا الى خطورة القضية ، وعرف أنها « مش رمّانه ، قلوب مليانه » ، واضطر إلى أن يشتري مكان الزريبة من الراعي بأضعاف ثمنها الحقيقي .

وتوقف محمد جميل بيهم عندئذٍ ، عن الكلام ، فاستطردتُ : « ومن ذلك الوقت صرنا نقول :

« **نيّال اللي إلو مرقد عنزه بجبل لبنان** » .

قال ، رحمه الله : « قلْ ما تشاء . . ولكن على مسؤوليتك ! »

مَا في بالميدان غير حْدَيْدانْ

يقال أن عادة التزمير أمام مواكب الحكام دخلت الى بلادنا مع الفرنسيين ، وكان أوّل من استعملها الجنرال « فندنبرغ » ، الرئيس الفرنسي لحكومة لبنان سنة ١٩٢٤ ، والذي كان ينزل ضيفاً في قصر هنري بك فرعون ، في محلّة زقاق البلاط ، في أثناء تولّيه الحكم في لبنان .

وكان الجنرال فندنبرغ ، وهو قائد فرنسي شيخ ، يحتفظ بالتقاليد العسكرية ويحيط نفسه بهالة من المهابة . وكان ، في ذهابه وإيابه يُرسل امامه سيارة عسكرية تطلق زمّورها بدون انقطاع ، لإفساح الطريق أمام سيارة رئاسة الحكومة .

وقد أطلق عليه أبناء حي زقاق البلاط لقب « حديدان » الذي سبق لهم أن أطلقوه ، قبل نصف قرن تقريباً على زميله الحاكم التركي زهدي أفندي ، الذي كان يحكم بيروت ، كذلك ، من زقاق البلاط .

وتاريخ زقاق البلاط يعود الى عهد الحاكم المصري عبد الفتاح حماده ، الذي حكم بيروت ، كذلك من زقاق البلاط ، في الثلاثينات من القرن الماضي ، وحدث أنه شيّد لنفسه داراً فخمة

في تلك المحلة ، ورصف الزقاق المؤدي إليها بالبلاط ، فدُعي اسمه زقاق البلاط الى يومنا هذا .

وكلمة « حديدان » كانوا يطلقونها على الدابّة « المحذيّة » حديثاً ، بالنسبة الى حديد نعال حوافرها ، وكان البرذون ، في ذلك الزمان ، مركوب بعض أشراف السلطنة العثمانية ، إظهاراً للزهد والتقوى . والبرذون هو دابّة أقرب الى الحمار مما هو الى الفرس ، ومنه نوع يُسمى الرهوان يمشي خبباً ، فيؤلف وقع حديد حوافره أنغاماً متوازنة .

ومن أشهر راكبي البرذون في بلادنا حمدي باشا والي سوريا ، في القرن الماضي ، الذي اشتهر بالتواضع والورع ، فاقتدى به كثيرون من حكام ذلك الزمان ، ومنهم زهدي أفندي المذكور .

ومن مرويّات مصطفى الداعوق ان زهدي أفندي كان يخرج ويعود يومياً ، على ظهر برذون رهوان اطلق عليه أبناء المحلة اسم « حديدان » ، ثم اندمج البرذون بصاحبه فصارا اسماً واحداً .

ويضيف مصطفى الداعوق ان تقاليد الفروسية قديمة في بيروت ، وميدان سباق الخيل في حرج بيروت قديم العهد كذلك ، فاذا انتصف نهار الخميس من كل اسبوع امتطى كل فارس فرسه وتوجّه الى الميدان .

وكانت للفروسية تقاليد وأصول تقضي أن لا تدخل الى الحلبة إلا الخيول الأصيلة ذوات الحسب والنسب .

وفيما بدأت طلائع الفرسان المتبارية تتجه ، ذات يوم ، الى ميدان السباق ، وصل زهدي أفندي ، على ظهر الرهوان ، ودخل الى الميدان وأخذ يعدو خبباً ذات اليمين وذات الشمال ، متحدّيا فرسان ذلك الزمان . فانفضّ من حوله من حضر من الفرسان ، وقيل يومئذ :

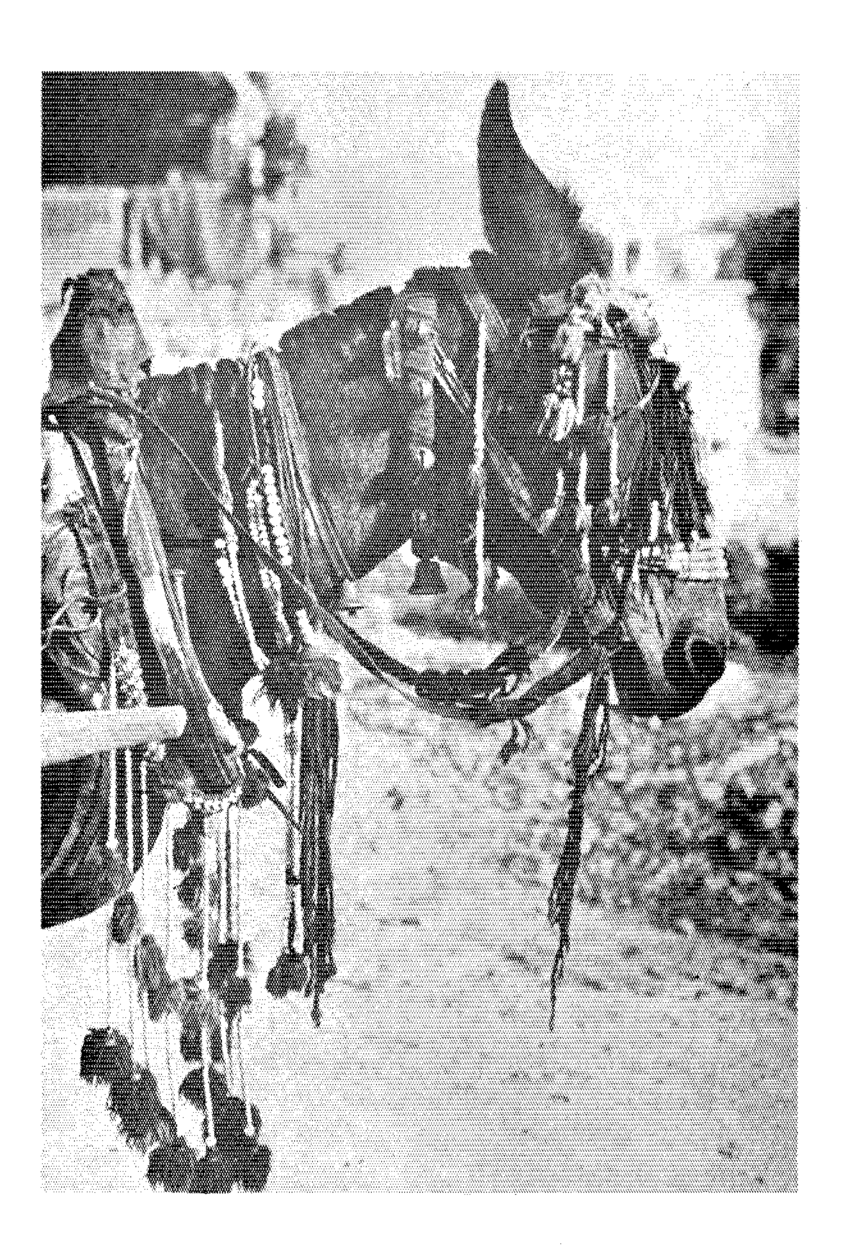
ـ ما في بالميدان غير حديدان .

تهفا ولا يردّها بليق

ـ و« بليق » هذا كان كديشاً اشتهر بهذاالاسم . . وحدث أنّ لصاً تسرّق وسرق فرساً كريمة الحسب والنسب ومشهورة بين خيول العرب ، واعتلى متنها وراح يسابق الريح . وبادر صاحب الكديش الى كديشه « بليق » وفكّ رسنه ليركب ويلحق اللص . فزجره صاحب الفرس ، وقال :

ـ تهفا ولا يردّها بليق !

فجرت عبارة الرجل مجرى الأمثال الى يومنا هذا .





حاميها حراميها

إذا اجتمعت زوجة موظف بزوجة موظف آخر تسألها : « قدّيش زوجك بيجيب برّاني ؟ » . وكلمة « براني » تعني المبلغ الذي يحصل عليه الموظف « شوفة خاطر » لقاء تسهيل بعض المعاملات في الدوائر الحكومية . وتقابل كلمة « برّاني » كلمة « جواني » في اللغة اللبنانية المحكية .

وأصل هذه الكلمة يعود الى عهد الانتداب الفرنسي وما قبله ، حين كانت مداخل مدينة بيروت تخضع لما يُسمى « دخولية » وهو رسم كانت تتقاضاه بلدية بيروت عن كل بضاعة او إنتاج زراعي او حيواني يدخل الى المدينة ، بواسطة مكاتب شبه جمركية قائمة في مداخل العاصمة .

ومما كان شائعاً ان بعض السماسرة كانوا يقفون « برّات » مكاتب الدخولية ، اي خارجها ، ويساومون أصحاب البضاعة ، فيقبضون منهم « شوفة خاطر » ، ومن يدفع « البرّاني » يضمن رضا « الجوّاني » فتُقضى حاجته بسرعة . وبقينا ، حتى الآن نستعمل « البرّاني » و« الجوّاني » عند الكلام على تجاوزات بعض الموظفين .

ومما يروى أن رجلاً ما وربما كان من شعراء الزجل في ذلك الزمان كان قادماً الى بيروت ومعه بضاعة ما ، ورفض ان يدفع « البراني » فبلصه « الجواني » . وعندما خرج من مكتب الدخولية رأى شحاذاً أعمى واقفاً ينادي : يا محسنين ! يا مؤمنين ! فقال له : « إذا أردت ان تثير انتباه المحسنين عليك ان تغني لكي تجذب انتباههم » .

قال الأعمى : « ولكني لا أعلم ماذا يجب أن أغني » .

قال الرجل : قل :

القصّه فيها وما فيها   سْماع الردّه وكفّيها

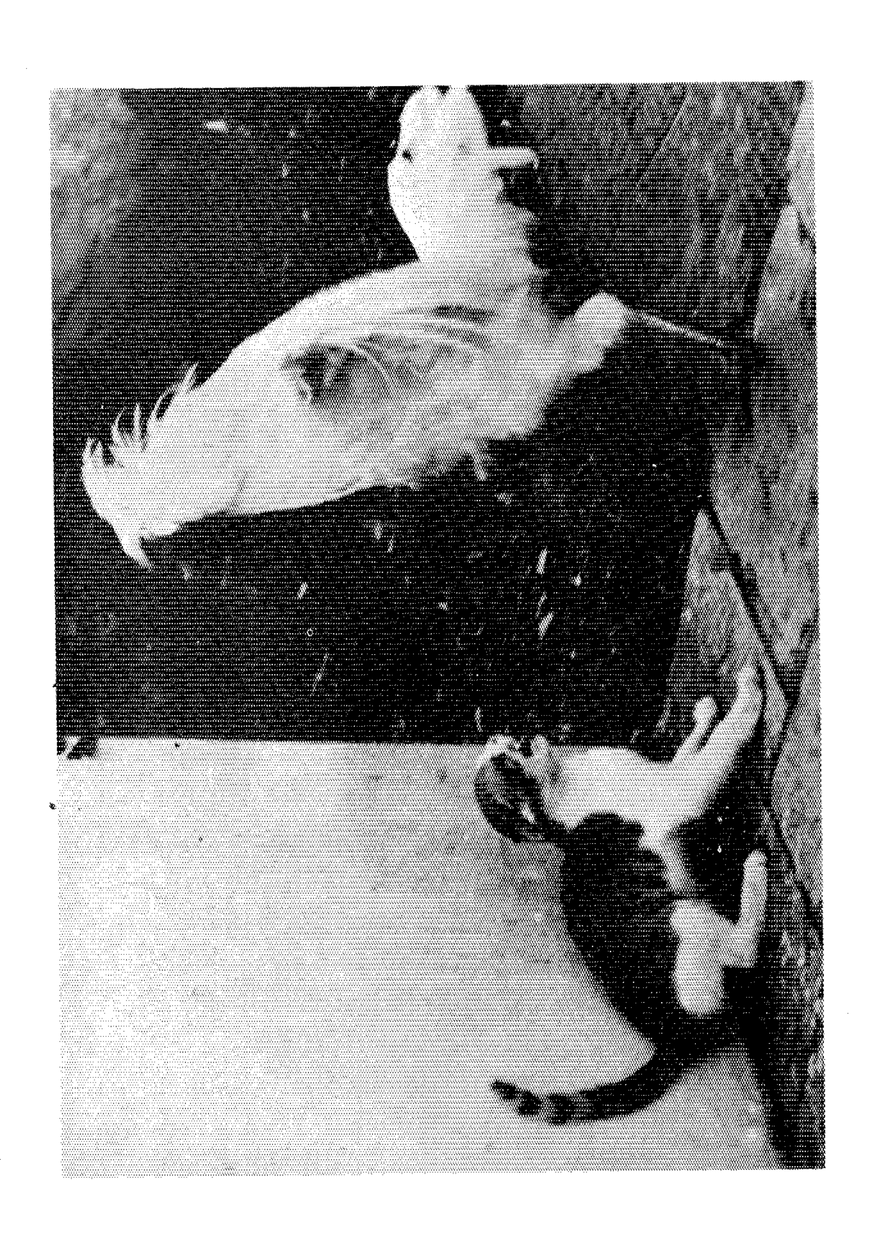
وحدث ان مرّ في المكان أميل لحود الذي كان شاعراً شعبياً ومن كبار رجال السياسة ، وسمع الأعمى يغني على لحن القرّادي :

القصّه فيها وما فيها   سْماع الردّه وكفّيها

ففطن أميل لحود الى أن هذه الردة من القرّادي لا بدّ ان تكون « ملغومة » وأجازها كما يلي :

القصّه فيها وما فيها   سْماع الردّه وكفّيها
ان دخولية بيروت   **حاميها حراميها**

وراجت هذه الردة في الأوساط الرسمية حتى قيل انها كانت سبباً في إلغاء الدخولية ، والله أعلم .



مَا بتهزّ العروش غير النّسوان.. والقروش

قد يتجاوز مدى الأدب الشعبي حدود الجغرافيا والتاريخ ، بدون أي تكلّف ، فالمتحدث القروي في إمكانه ان يستحضر نابليون بونابرت « ليحطّ فكاشاً » ، مع عنترة بن شدّاد في أحد مقاهي شارع الحمراء ، في بيروت ، فيفكش عنترة يد نابليون ويكسر خجله .

وقد يكون في إمكان الراوية الشعبي ان يروي لنا كيف قبض الزير أبو ليلى المهلهل على الاسكندر ذي القرنين و« رقعه قتلة » في حضور المير بشير وهارون الرشيد والشاطر حسن .



لكن أطرف ما ارتقى اليه خيال الأدب الشعبي جاء على لسان الشيخ ابو كيوان ، حدّثني فقال :

ــ اغتصب أحمد باشا الجزّار ولاية عكّا وطغى وبغى وذاع صيته في جميع الأقطار . وكان السلطان عبد الحميد خان الثاني ما زال وليّاً للعهد ، فقال أبوه سلطان بني عثمان في ذلك الزمان : « فلنرسلنّه الى عكّا لكي يتدرّب على يدي الجزّار[1] ، لأن سياسة العباد في

(١) مات الجزّار قبل ميلاد عبد الحميد بأربعين سنة تقريباً . مع ذلك أراني =

هذه البلاد لا تقوم إلا على دعائم الاستبداد » .

وبقي عبد الحميد في عهدة الجزّار ستة أشهر ، في تدريبات متوالية على ممارسة الظلم والقهر والاغتصاب وسمل الأعين وجدع الأنوف وبثّ الأرصاد ونفث الأحقاد وحرق المكتبات والمكاتب وفرض الغرامات والضرائب وتوزيع البارود على العباد لكي يقتل بعضهم بعضاً بدون حساب ، قال الجزّار أخيراً :

ـ إسمع يا بُنيَّ يا عبد الحميد ! إن كلّ ما لقنتك من دروس وطرائق في هتك الحرمات وطمس الحقائق هو النصف فقط ، والنصف الآخر هو حكمة شريفة إذا حفظتها حفظت عرش بني عثمان الى آخر الزمان ، وهذه الحكمة هي :

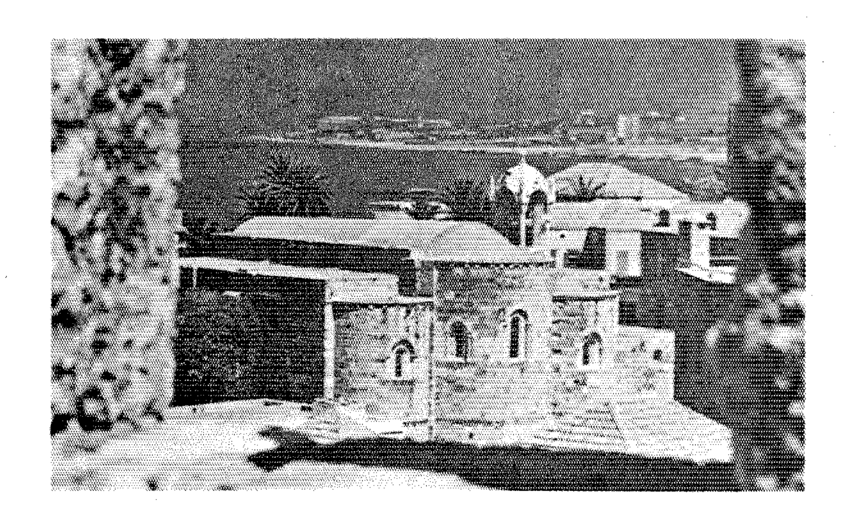
ـ ما بتهزّ العروش غير النسوان . . والقروش(٢)

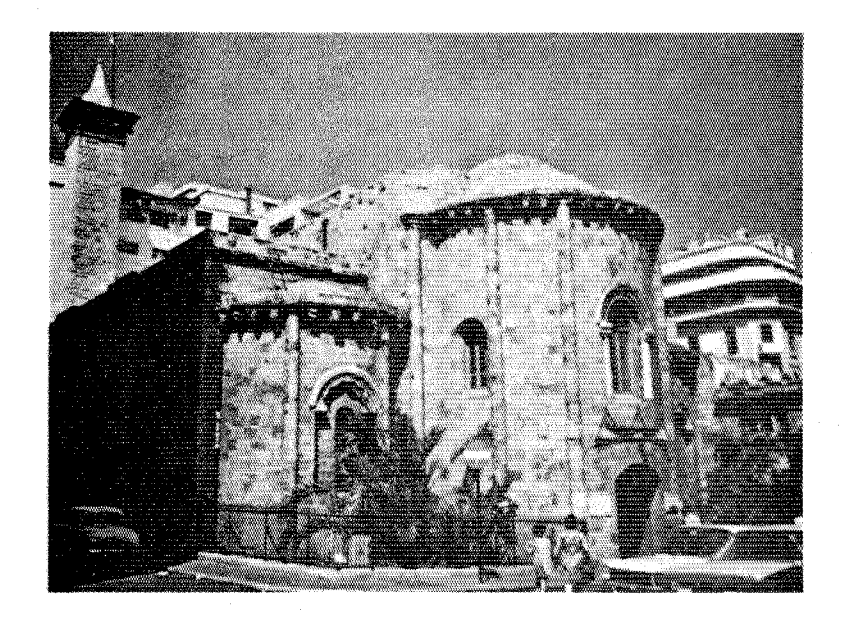
فجرى كلام الجزار مجرى الأمثال الى يومنا هذا .

= أميل الى تصديق الحكاية أكثر من التاريخ ، لأن الأدب الشعبي هو أدب البساطة والعفوية والبراءة .

(٢) جرت العادة ، منذ عهد محمد الفاتح سلطان بني عثمان ، أن أيّاً من أولاد السلطان الذي يحظى بالتاج بعد موت أبيه يقتل جميع إخوته ، وجلّهم في الغالب من أمّهات غير أمّه . فكانت كلّ منهن تسعى لأن يلي ابنها الحكم . فان مراد الثالث قتل خمسة من اخوته ، والسلطان محمد الثالث قتل تسعة عشر أخاً من إخوته . أما سليمان القانوني فقد قتل ولدين من أولاده بتحريض من زوجته ، لأنهما كانا من أولاد ضرّتها ، لا من أولادها » . **لبنان في التاريخ ـ حتي**


SULTAN ABDUL HAMID KHAN







كلّنا بالهوا سوا

أبو فضّول وأبو مخّول قرويّان متجاوران يفصل بين بيتيهما حائط مشترك ، بحيث يقدر الواحد منهما ان يسمع حديث الآخر . وكان كل واحد منهما يعيش مع زوجته على بركة الله .

وفي إحدى الليالي اضطرّت أم فضّول الى ان تخرج في « حاجة نفسها » ، لعدم وجود منتفعات داخل بيوت القرويين ، وفيما هي في الخارج ، انتبه ابو فضول الى انها تتكلّم مع أحد الناس ، فقلقت أفكاره ونهض مستوياً في فراشه .

وعندما دخلت سألها مع مَن كانت تتكلّم ، قالت : « مع الهوا »

قال : « مش معقول ، احكي الحقيقه ! »

قالت : « ولو يا بو فضّول ! مفتكرني غشيمه ، المرا المستوره بيكونوا عينيها عشره .. لما وصلت لتحت العريشه ، ولذت ورا الحيط ، انتبهت .. سمعت خربشه حدّ باب بيت بو مخّول ، عالعتم ، خفت يكون حدا جاي ويشوفني بهالحاله ، بدّي طمّن بالي ، قلت : « هوا يمّا حدا ؟

قال : « هوا ، كفّي شغلتك وفوتي نامي ! » قلتلّو : « خي طمّنتلي بالي » .

فصرخ بها أبو فضّول : « وِلك يا قليلة العقل ، بتستحقّي قتله ، بس بخاف جارنا أبو مخّول يسمع صريخك ، خلّينا بلا ما نفضح حالنا » .

وطار النوم من أجفان ابو فضّول وراح يتقلّب في فراشه . وبعد ساعة سمع جاره ابو مخّول ينادي زوجته أم مخّول ، فتجيب أنها في « بيت المونة » .

ــ وشو عم تعملي ببيت المونه ؟
ــ جيت غطّي معجن الخبز ، خفت البسينات يكشّفوه .
ــ ومين فاتح باب البيت ؟
ــ الهوا يا بو مخّول .
ــ أيّا هوا . أنا سكّرت الباب ودقّرتو ومدفعتو .
ــ ولو يا بو مخّول ، الهوا بيقلع الشجره ، ما بيقدر يفتح الباب .
ــ واذا فرضنا ان الهوا فتح الباب ، شو جاب هالفردة الصبّاط الغريبه ورماها فوق البساط ؟
ــ وشو فيها ! ما زال الهوا بيفتح الباب ، بيقدر يجيب فردة صبّاط غريبه من آخر الدنيا ويرميها عنا .

وكان أبو فضّول يتنصّت على كلام أبو مخّول وأم مخّول ، فنهض ودقّ على الحائط المشترك وقال :

ـ يا بو مخّول ! هوا وستّين هوا ، مرتي شافتو وحكيت معو .

فتنهّد أبو مخّول وقال :

ـ **كلّنا بالهوا سوا !**

فجرت كلمة أبو مخّول مجرى الأمثال الى يومنا هذا .

مَال قَـــارون

اشتهر قارون بغناه ، فمن هو قارون ؟

تقول إحدى الأساطير ان أحد ملوك الزمان طلب من الله أن يمنحه قوّة تجعل كلّ ما تمسّه يده ذهباً ، فأعطاه الله حسب نيّته ، وصار كلّما مسّ شيئاً صار ذهباً ، حتى زوجته وأولاده ، وحتى الأكل بين يديه صار ذهباً . ولم يلبث أن مات جوعاً .

وكان عنده خادم اسمه « قارون » راح يجمع الذهب من حول سيّده ، وصار بعده ملكاً اشتهر بوفرة غناه .

القولُ قولُ أجيرٍ والفعلُ فعلُ أميرْ

من حكايات التاريخ أن الوالي أحمد باشا غضب على الأمير أحمد المعني وطرده وأسند ولاية جبل الشوف الى الشيخ سرحان العماد الذي أراد ان يتزوّج إحدى بنات الأمير أحمد في غيابه فلم يُؤذن له .

وعندما أُعيدت الولاية الى الأمير أحمد وبلغته محاولة الشيخ سرحان أمر بقتله وقتل آل العماد ، فقتلوا جميعاً ولم ينجُ منهم سوى رجل واحد فرّ متنكّراً الى قرية كامد اللوز في البقاع حيث اشتغل أجيراً ، وسمّي « بعزق » لأنه كان يبعزق ما تصل اليه يده من خيرات أملاك الناس .

قيل ان أحد أسياده اتهمه ببعزقة خيرات أرضه وسلّمه الى القضاء ، لمحاكمته ، فقال « بعزق » :

ــ ولكنني ، من أجل كرامة سيّدي ، كنت أتكارم بقسم من خيرات أرضه ، على عابري السبيل .

فنظر القاضي ، ملياً ، بالرجل وقال له :

ــ **قولك قول أجير وفعلك فعل أمير ، قلْ من أنت أيها الرجل !**

حكاية إبريق الزَّيت

من أشهر الأمثال الشعبية مَثَل « حكاية ابريق الزيت » ، بل لعلّه أشهرها جميعاً ، فنحن نقول عن كل تكرار في الكلام واجترار للمعاني : «مثل حكاية ابريق الزيت » .

وخبر هذه الحكاية عند الأخ أبو الخِلّ ، قال :

ـ يُحكى أن كاهنا حسن النيّة متوقّد الحميّة لاحظ ان كنيسته المكرّسة على اسم مار الياس صارت قديمة وغير لائقة بشفيع القرية ، قال : « هذا غير مقبول حقاً » .

واغتنم الكاهن مناسبة القداس ، وبعد قراءة الانجيل المقدّس وقف في باب الهيكل وقال :

ـ سأحكي لكم حكاية ابريق الزيت ، فقد انحبس المطر عن الأرض وهلك كثيرون جوعاً . وصدف ان مرّ مار الياس[1] بامرأة تقشّ عيداناً يابسة وطلب منها كسرة خبز ، ولم تكن المرأة تعرف مار الياس ، فقالت :

---

(١) التوراة ـ سفر الملوك الأول اصحاح ١٧

ـ حيٌّ هو الرب ، ليس عندي سوى حفنة من الدقيق في الكوار وقليل من الزيت في الابريق وهانذا أقشّ العيدان لأرجع وأخبز فطيرة لي ولابني لنأكلها ثم نموت .

فقال لها مار الياس :

ـ لا تخافي فان كوار الدقيق في بيتك لن يفرغ بعد الآن وابريق الزيت لن ينقص ، ادخلي واعملي فطيرتك واقسميها في ما بيننا نحن الثلاثة .

وصدق مار الياس مع المرأة . فلم يفرغ كوارها ، بعد ذلك ، ولم ينقص ابريقها من الزيت . .

وأضاف الكاهن :

ـ ومار الياس يقول لكم الآن ان بيته صار قديماً لا يليق بشفيع قريتنا ، أعطوه مما عندكم من الزيت وهو يبارك خيرات بيوتكم ويكون صادقاً معكم كما صدق مع المرأة الفقيرة .

ومضى كل رجل الى بيته وأتى بما تيسّر من الزيت ـ لأن الزيت كان المنتوج الرئيسي في القرية ـ لكن ذلك لم يكن كافياً لبناء كنيسة جديدة لمار الياس ، فراح الكاهن يكرّر حكاية ابريق الزيت ، مع كل قدّاس وراح المؤمنون يتبرّعون بحماسة وغيرة ، حتى تم أخيراً بناء الكنيسة .

وصارت **حكاية ابريق الزيت** مثلا شعبياً نعود اليه كلما ناسبته المناسبة .

قَدّ فولو قَــدّفولو

من مرويّات المرحوم الاستاذ نجيب الخوري ان المرسل الأميركي الدكتور جَسَب كان يتكلّم العربية ويحفظ بعض الأمثال العاميّة . وحدث انه كان يخطب يوماً في كنيسة سوق الغرب الانجيلية ، فقال :

ـــ بعض الناس يحاولون ان يخدعوا الله ، يفعلون « السبعة وذمّتها » في بحر الأسبوع ، فاذا جاء يوم الأحد لبسوا ثيابهم الجديدة وأتوا الى الكنيسة وجلسوا في المقاعد الأمامية ، كأنهم يقولون لله : « ها نحن هنا » . . لا لا يا أخي لا تظن الله غشيماً ، إنه عند محاسبتك ، يوم الدينونة سيقول لملائكته ، كما قال المثل : « **قدّ فُولو قَدّفولو** » .

وعندما انتهت الصلاة جاء البعض وسألوه : « شو يعني : قَدّ فُولو قَدّفولو » .

قال : « هذا مثل من أمثالكم » .

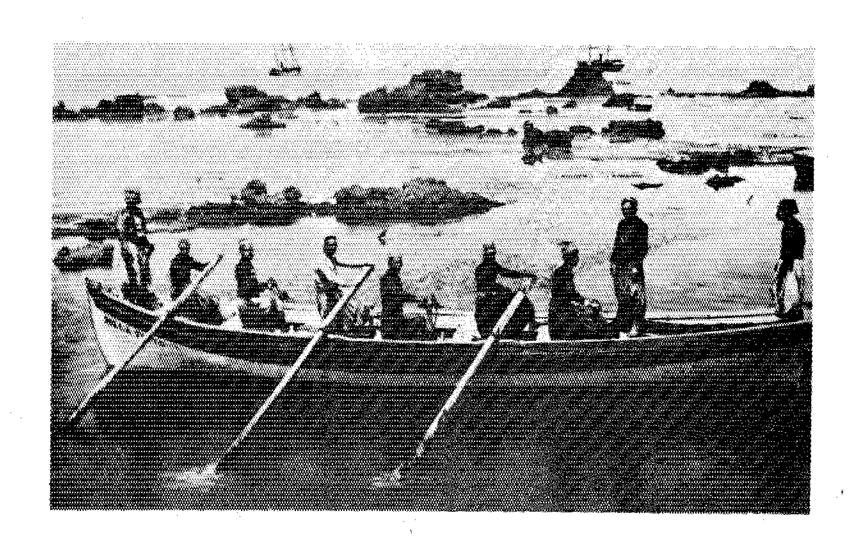
قالوا : « إننا لم نسمع به قبلاً ولا نفهم معناه » .

ولما كان الدكتور جسب ، هو نفسه لا يعرف معنى المثل ،

لذلك اعتذر ، واضطر الى ان يبحث عنه ، وتبيّن ان تاجراً مصريّاً كان قد استحضر قارباً لتشغيله في بيروت استخدم فيه بعض المجذّفين البيارتة ، وكان لا يُطعمهم غير قليل من الفول ، فشكوا أمرهم الى أحد زعماء بيروت ـ وكان ذلك في عهد ابراهيم باشا المصري ـ فقال لهم :

ـ الظرف حرج ، فلا تُغضبوا صاحب القارب ، لكن ، قدّ فولو قَدّفولو » . أي على مقدار فوله جَذّفوا له .

فجرت هذه العبارة مجرى الأمثال ، في بيروت ، دون سواها من المناطق .



أرزة عِزّة

منذ متى كان أرز لبنان رمز عزّه وكرامته !

في حديثٍ لي مع الخوري شكرالله فرنسيس قال ان الأرز شجر مقدّس ، لأن جميع الأشجار سجدت للعوسجة البرّية ما عدا شجرة الأرز .

وإذ لم يكن في مقدور مَن كان مثلي ان يجادل مَنْ كان مثل الخوري شكرالله في شأن من شؤون الدين والدنيا ، نمتُ على هذه الخبرية .

لكن حدث مؤخراً وبينما كنت أُعيد قراءة بعض أسفار التوراة وربما للمرّة العشرين ، عثرت في الأصحاح التاسع من سفر القضاة على ما يلي :

ـ ذهبت الأشجار يوماً لتمسح عليها ملكاً . فقالت للزيتونة املكي علينا . فقالت لها الزيتونة أأترك دهني الذي به يكرمون بي الله والناس وأذهب لكي أملك على الأشجار . ثم قالت الأشجار للتينة تعالي أنتِ واملكي علينا . فقالت التينة لها أأترك حلاوتي وثمري الطيّب وأذهب وأملك على الأشجار . فقالت الأشجار للكرمة تعالي أنتِ واملكي علينا . فقالت لها الكرمة أأترك

مسطاري الذي يفرّح الله والناس وأذهب لكي أملك على الأشجار . ثم قالت جميع الأشجار للعوسجة تعالي أنتِ واملكي علينا . فقالت العوسجة للأشجار إن كنتم بالحق تمسحونني عليكم ملكة فتعالوا واجتمعوا تحت ظلّي وإلا فتخرج نار من العوسج وتأكل أرز لبنان .

الرحمة والسلام على روح الخوري شكرالله في ديار الآخرة ، لعلّه كان يعرف ، حول هذاالموضوع ، ما لم يكن يعرفه مترجمو التوراة ، لذلك جاء المعنى مبهماً .



فقر وهداوة بال

بين صداقاتي الشعبية صداقة نشأت بيني وبين أبو كايد ، وهو نوري عازف بزق يقضي حياته على أبواب الناس . سألته يوماً اذا كان راضياً عن نفسه وقانعاً بمعيشته وهي كما قال المثل : وقوف على الأبواب ونوم على التراب . قال :

ـــ جميع الناس ، حسب المفهوم النوري ، يتحدّرون من أخوة ثلاثة ، صار الأول منهم فلاحاً والثاني راعياً والثالث نورياً . وقبل أن يموت أبوهم ، وهو جدّ الخليقة دعا أولاده الثلاثة وقسم لهم أرزاقهم وأقدارهم في الحياة ، فقال للفلاح :

ـــ **إركض ركض الوحوش غير رزقك ما بتحوش .**

وقال للراعي :

ـــ **كلّ رعيّة يوم بتيسنة سنه .**

وقال للنوري :

ـــ **فقر وهداوة بال لا مكسب ولا رسمال**

فجرت أقوال جدّ الخليقة مجرى الأمثال الى يومنا هذا .

قال المثل

لا حدود بين الأدب الشعبي والشعر الشعبي ، كلاهما ينبعان من معين واحد . لكن معالجة موضوع الشعر الشعبي تحتاج الى كتاب على حدة ، بالنظر لاتساع آفاقه .

والذي يعنيني الآن هو الاشارة الى حيث يتناول الشعر الشعبي بعض ذخائر الأدب الشعبي ويرصّع بها معانيه .

كان الشيخ يوسف زخريا محافظاً في الجنوب ، وكان يلعب الورق ، غالباً مع أمين بك خضر والدكتور نبيه الشاب والدكتور عزيز إيليا في صيدا .

وكانوا يلعبون « الليخة » ويزرّكون للمغلوب ، ويتهاجون زجلاً ، لأن هؤلاء الثلاثة كانوا من شعراء المناسبات في الزجل .

وكانوا يراعون جانب الشيخ يوسف ، فلا يغلبونه أبداً ، حفظاً لمقامه واحتراماً لكبر سنّه . إلا أنه كان يشترك معهم في التزريك ، فيشاركهم في الغنائم لا في الغرائم ، حتى أنهم تغامزوا مرّةً عليه وغلبوه ، فالتفت اليه الدكتور عزيز وقال :

يا شيخ يوسف علقتك مِرّه الدنيا، إلك مَرّه وعليك مَرّه

طمعان فينا والمثل بيقول: **مش كل مَرّه بتسلم الجرّه**

فطلب الشيخ يوسف من أمين بك أن يرد بالنيابة عنه، فقال:

هالمشكله يا ريت قادر حِلّها عن نايبك، بس الحقيقه كلّها
عَدّ العصي ولا أكلها، قال المثل: **والنار ما بتحرق بغير محلّها**

فاستنجد الشيخ يوسف بالدكتور نبيه، فقال:

بلاد الجنوب سهولها وعرقوبها تفدي محافظها العزيز بقلوبها
لكن بوقت الجد بيقول المثل: **كل عنزه معلّقه بكرعوبها**

فاشتلق الشيخ يوسف، وكان ينظم الشعر الفصيح في المناسبات. فرد عليهم هذه المرّة زجلاً قال:

مِدري صحابي تبدّلوا مِدري حسد مدري عيوني غبّشوا فيهم رَمَد
مدري زماني جار، بيقول المثل: **إن أقبلت باض الحمامُ على الوتد**

أو أمحلت شخّ الحمار على الأسد

خربت جونيه

إذا استبدّ الجوع بأحد الناس قال : « خربت جونيه » . فما هي علاقة جونيه بالجوع وبالخراب يا ترى !

إننا نعلم ان مدينة جونيه تعرّضت ، خلال التاريخ ، لغزوات وحروب عانت خلالها الجوع والخراب ، ولا سيّما خلال الحرب العالمية الأولى ، ومن هنا ما قيل ان سيّدة حريصا المعتصمة في قمّة الجبل ، فوق جونيه ، كانت تعطيها المناعة في أيّام الشدّة .

ولكن لعل عبارة « خربت جونيه » هي من المصطلحات التاريخية ، التي درج المؤرخون ، قديماً ، على تأريخ الأحداث بواسطتها ، وذلك باعتماد حساب الجُمَّل ، أي حساب الأحرف الأبجدية المقرونة بأرقام من الواحد الى الألف[١]

فإذا حسبنا عبارة « خربت جونيه »بالحساب الأبجدي المذكور ، حصلنا على التاريخ المطلوب وهو سنة **١٢٧٦** هجرية الموافقة لسنة **١٨٦٠** ميلادية ، والتي كانت سنة شؤم في تاريخ لبنان ، كما نعلم .

---

(١) كيفية معرفة الحساب الأبجدي تتبع

أما لماذا اختاروا جونيه ، دون سواها ، لهذا التاريخ ، فلربما لملاءمة أرقام حروفها .

فالأقدمون لم تكن عندهم وسائل لتأريخ الأحداث إلا بوضع عبارة تجري مجرى الأمثال ويسهل حفظها في أذهان الناس ، فإذا أرادوا معرفة تاريخ حدوث حادثة ما فطنوا الى العبارة وحسبوا أرقامها ، وعلى سبيل المثال عبارة « ندمت غزير » .

فقد جاء في تاريخ الأعيان في جبل لبنان ما يلي :

- وفرّ الأمير حيدر من غزير الى الهرمل واختبأ في مغارة فاطمة ، وانجلى أهل غزير الى نواحي طرابلس . ولما خلت غزير من العسكر القيسي دخل اليها العسكر اليمني فنهبها وأحرقها وهدمها ، فأمست بلقعاً ، فقيل في تاريخها « ندمت غزير » .

فإذا أردنا ان نعرف متى وقعت حادثة غزير حسبنا أرقام حروف عبارة « ندمت غزير » فحصلنا على الرقم ١٧١١ وهو رقم السنة الميلادي ، الذي حدثت فيه الحادثة .

وكان تأريخ الأحداث شعراً من مسؤوليات شعراء ذلك الزمان ، فاذا أردنا ، مثلا ، ان نعرف متى مات ضاهر العُمَر ، رجعنا الى قول الشاعر :

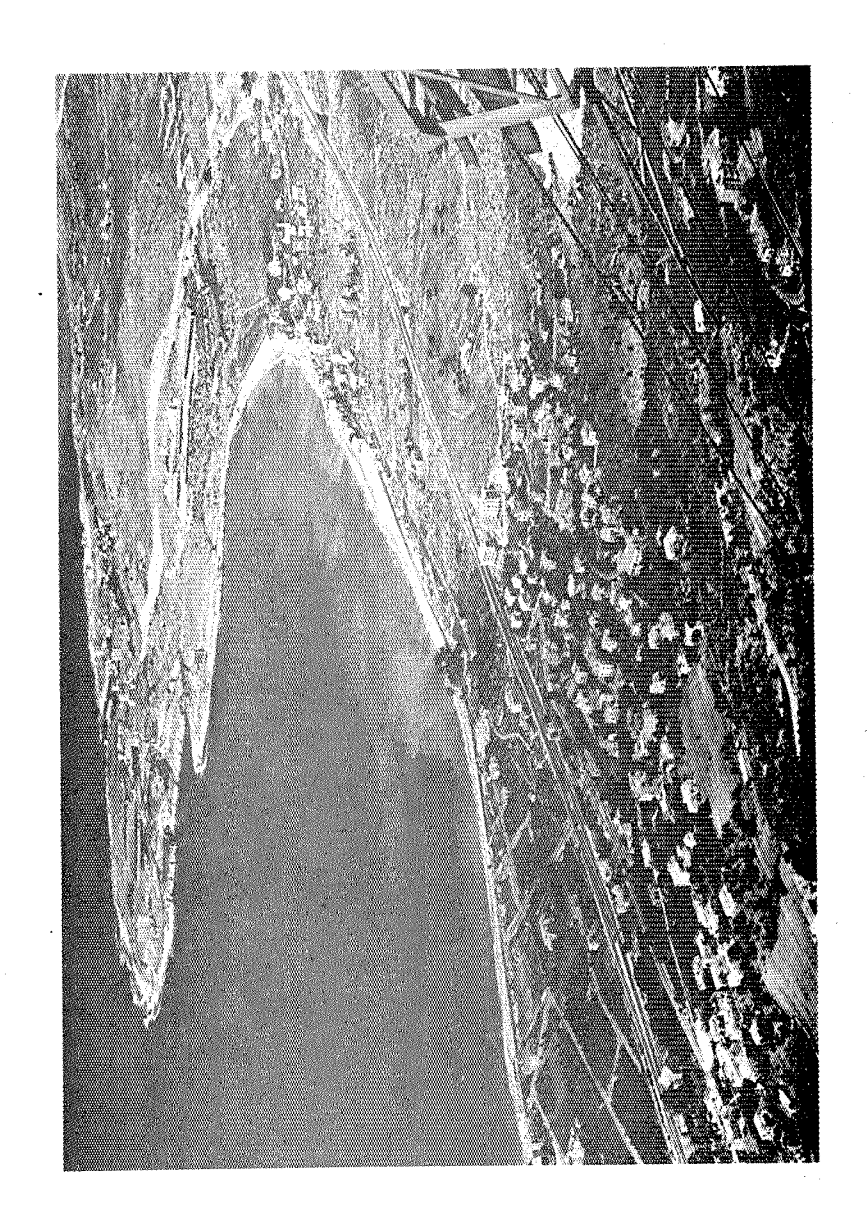
سنةٌ أتى تاريخها فيها هلاك الضاهر

فإذا جمعنا أرقام أحرف الكلمات ، بعد كلمة « تاريخها »

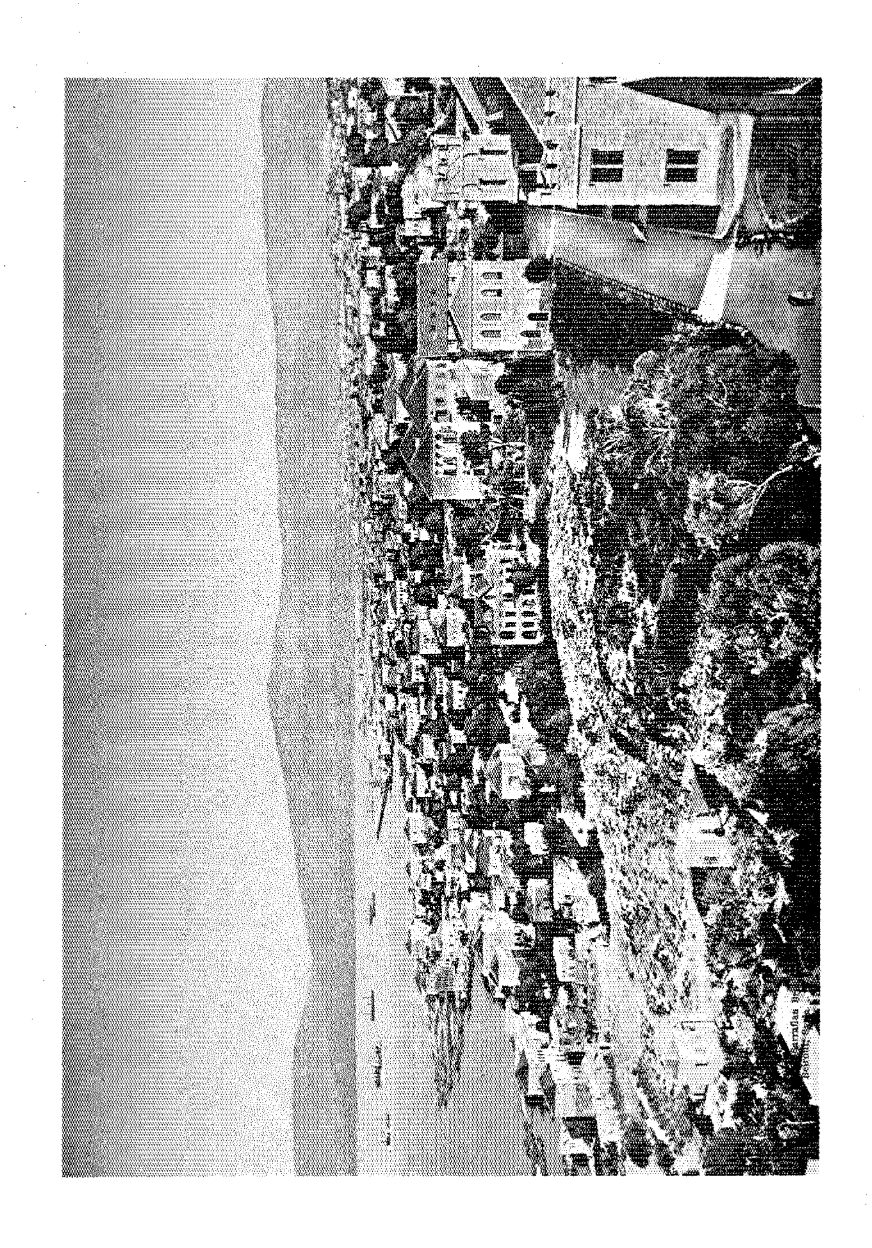
حصلنا على الرقم ١١٨٩ وهو تاريخ وفاة ضاهر العمر (سنة ١١٨٩ هجرية) .

حِسابُ الجُمَّل

الحرف	الرقم	الحرف	الرقم
أ	١	س	٦٠
ب	٢	ع	٧٠
ج	٣	ف	٨٠
د	٤	ص	٩٠
هـ	٥	ق	١٠٠
و	٦	ر	٢٠٠
ز	٧	ش	٣٠٠
ح	٨	ت	٤٠٠
ط	٩	ث	٥٠٠
ي	١٠	خ	٦٠٠
ك	٢٠	ذ	٧٠٠
ل	٣٠	ض	٨٠٠
م	٤٠	ظ	٩٠٠
ن	٥٠	غ	١٠٠٠







من قِلَّةِ الرجال سمّوا الدّيك بوقاسم

قبل التحاقي بوظائف الدولة كنت « فكّاك مشاكل » في قريتي : أفكّ مشاكل الناس ، أحيانا ، وأفتعل المشاكل في بعض الأحيان ، لأتولّى حلحلتها ، حسب مرامي واهتمامي .

وكان بعض أصحاب المشاكل ـ أو ضحايا المشاكل ـ يطرقون بابي ، فيسلّم عليّ أحدهم باليمين ، ويناولني ما يحمله إليّ باليسار ، كسطل لبن أو سلّة بيض ، او ما أشبه ذلك ، لأن المثل يقول : « « **الإيد الفاضيه مجويّه** » .

وعندما صرت « ابن حكومة » ، في بيروت ، لم أخلع عنّي شخصيتي القروية ، ولم أتنكر لتقاليد قريتي . وحدث يوماً أن قدم الأخ ابو يوسف لزيارتي في مكتبي ، وسلّم علي باليمين ، ووضع جانباً سلة كان يحملها باليسار ، وانعجق بالتحيات والمجاملات ، في حين كانت عيني على السلّة ، فنزعت عنها غطاءها وإذا بديك يقفز منها بوجهي ويأخذ بجناحيه بعض المعاملات المنثورة على طاولتي ، ثم ينقضّ على النافذة فيكسر زجاجها ويرتدّ الى واجهة الملفّات فيبعثرها ، ويغطّ على الصورة الرسمية في صدر المكتب فيقلبها ، ويستقرّ أخيراً على ظهر إحدى الخزائن ويهدأ روعه قليلاً .

في هذه الأثناء ، كنت قد استنفرت بعض الحجّاب والزملاء لمطاردة الديك ، فيما وقف الأخ أبو يوسف يلطم كفا بكفّ ويقول : « لهْ ، لهْ ، سوّدتلّي وجهي يا بو قاسم » .

وكان روعي ، أنا الآخر ، قد بدأ يهدأ قليلاً فقلت : « ومَن هو أبو قاسم ؟ »

قال : « ابو قاسم الديك »
قلــت : « ولماذا سمّيته أبو قاسم ؟ »
قال : « من قلّة الرجال . . »

واستوى أبو يوسف في مجلسه ، قبل انحسار غبار المعركة وإزالة آثار العدوان ، وقال :

ـ يُحكى ان امرأة كانت قد تزوّجت رجلاً من أصحاب الغنى والوجاهة ، وعاشت معه سنوات قليلة بالعزّ والكرامة ، ثم انقلب دولاب الزمان ، وانسدّت أبواب الرزق في وجه زوجها وما لبث ان مات . وانقطع الناس عنها ، حتى اخوتها واخواتها ، ففطنت الى المثل القائل : « **يا كثرة صحابي لما كان كرمي دبس ، ويا قلّة صحابي لما صار كرمي يبْس** » ، وانطوت على نفسها وعضّت على جرحها ، وسكتت .

ثم حدثت في البلاد ، فتن وقلاقل ، واختلّ حبل الأمن ، وكثر عدد طارقي الأبواب ، للاستلاب أو الاغتصاب ، فتزايد قلق المرأة على كرامتها ، وعلى ما تبقّى من أسباب معيشتها .

فلجأت الى حيلة تردّ عنها ، بواسطتها ، كيد المصطادين في المياه العكرة . كان عند المرأة ديك في مزرب داخل البيت يصيح في الليالي ويؤنسها في وحشتها ، فسمّته « أبو قاسم » .

وصارت المرأة ، اذا سمعت ، ليلاً ، وقع أقدام قريبة من منزلها ، أوجست خيفةً من أبناء السوء ، وراحت تحدّث الديك ابو قاسم ، باسمه ، بصوت مرتفع ، بحيث يظن قاصد السوء ، خارجاً ، ان رجلاً ما اسمه ابو قاسم موجود في الداخل ، ويقول ، لنفسه ، لعل ابو قاسم هذا من صناديد الرجال ولا يؤمن جانبه في النزال .

وحدث ان إحدى جارات المرأة جاءت ، ليلاً ، تستعير منها إحدى الحاجات . فسمعت المرأة ، في الداخل ، وقع أقدام جارتها في الخارج ، وبدأت تنادي أبو قاسم : « يا أبو قاسم طبخت لك مهلّبية ، أتريد يا أبو قاسم ان تتعشّى الآن ؟ البندقية في الخزانة ، اذا فتحت الخزانة يا أبو قاسم انتبه للبندقية ! » .

فالتقطت الجارة ، وهي في الخارج ، اسم ابو قاسم ، ورجعت وأخبرت أختها ، والأخت أخبرت أمّها ، والأم أخبرت جارتها . . وما لبث خبر ابو قاسم ان بلغ مسامع أخوة المرأة ، قالوا : « هذا عار كل العار ! لنغسلنه بدم أبو قاسم !

وصبروا حتى أرخى الليل سدوله ، وجاؤوا بكامل

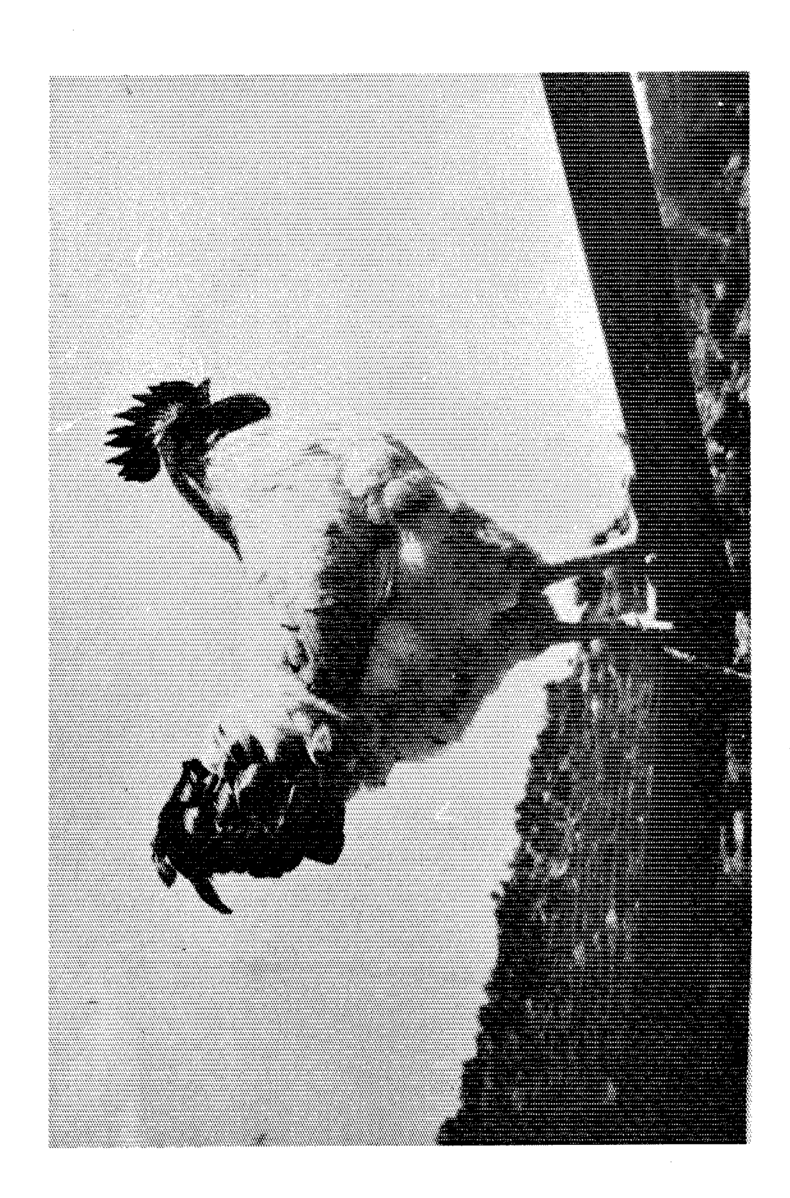
أسلحتهم ، وقبل ان يطرقوا باب أختهم ، سمعت من الداخل وطء أقدامهم في الخارج ، قالت : « لعل هؤلاء من أبناء السوء » ، وراحت تنادي ابو قاسم باسمه ، مراراً وتكراراً ، حتى تيقّن أخوتها من وجود أبو قاسم عندها ، واقتحموا الباب ودخلوا وصرخوا بأختهم : « أخرجي لنا ابو قاسم حتى نذبحه ! »

قالت المرأة : « مهلاً سأعطيكم ابو قاسم لكي تذبحوه ، ولكن أنتم أشقائي ـ والشقيق لوقت الضيق ـ تعلمون ان زوجي مات منذ سبع سنوات ، وقد ساءت ظروفي وما زالت تسوء يوماً بعد يوم ، بينما كثر عدد المتلصلصين في الليالي والمتوصوصين في النوافذ ، بالاضافة الى فارضي الضرائب والخوّات وهادري الأعراض والكرامات ، فلم يتحرّك وجدانكم ولم تقلق أفكاركم ولم تدبّ النخوة في رؤوسكم إلا عندما بلغتكم أخبار أبو قاسم » .

ونهضت المرأة وفتحت باب المزرب وأطلقت أبو قاسم الديك في وجوه اخوتها وقالت : « هذا هو ابو قاسم ، إن كنتم رجالاً فاذبحوه! » . فذهل القوم ، وعندما هدأ روعهم سألوها : « ولماذا سميتِ الديك أبو قاسم ؟ »

قالت : « من قلّة الرجال . . . »

ومن ذلك الزمان ، صرنا نقول : « **من قلّة الرجال ، سمّوا الديك بو قاسم** » .



.. والأرض للسلطان

جاء في الأصحاح ٢٤ من سفر صموئيل الأول ، من التوراة ، ان الملك شاول دخل الى المغارة « ليغطّي رجليه » .. كذا .

ويبدو ان مترجمي التوراة لم يفطنوا الى معنى هذه العبارة على حقيقته ، فترجموها على النحو المذكور ، ولو فهموا مضمونها لقالوا ان شاول دخل « ليقضي حاجته » - كما نقول نحن في لبنان - فلعلّ الشعوب السامية كانت تستعمل عبارة « يُغطّي رجليه » ، للتعبير عما يرمز اليه قولنا « يقضي حاجته » .

فالبدوي ، الآن - او البدوية - إذا أراد ان يقضي حاجته ، قرفص وأسدل ثوبه الفضفاض حوله - غطّى رجليه - وقضى حاجته ، بدون أي إحراج .

وهو ، أي البدوي ، ينصب خيمته في الخلاء . وبحكمٍ الاضطرار يقضيٍ حاجته ، هو وأولاده ونساؤه حول الخيمة ، تارة الى الشرق وتارةً الى الغرب ، تبعاً لانتقال ظل الخيمة ، وعندما تتراكم هذه « الحاجات » حول الخيمة وتصبح روائحها لا تُطاق ، يفكّ البدوي خيمته وينتقل بها الى مكان آخر .. ولذلك يعيش

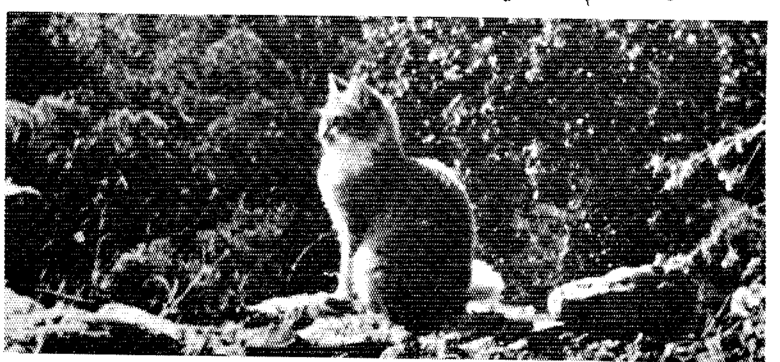
البدوي ـ وكذلك النوري ـ في ترحال دائم .

وقد حاولت أن أجد في الأدب الشعبي ما يرمز الى هذا المفهوم الشعبي ، فعثرت في كتاب « سوريا غير المكتشفة »[1] على مثل يقول :

« **الطَرَف طَرَفي ، والأرض للسلطان** » .

ولهذا المثل حكاية تقول أن بدوياً جاء الى المدينة وحدث أنه انحشر ، فقرفص ليقضي حاجته ، على سجيته ، فانتهره عابرو السبيل ، فقال : الط . . ط . . . والأرض للسلطان .

وجرى كلام البدوي مجرى الأمثال الى يومنا هذا .



(١) كتاب « سوريا غير المكتشفة » او « زيارات الى لبنان » للرحّالة الانكليزي « ريتشرد بروتن » المطبوع بالانكليزية سنة ١٨٧٢ . وقد وُضعت فيه الأمثال الشعبية السائدة في ذلك الوقت ، بنصها العربي مع الترجمة الانكليزية . وقد كتب هذا المثل على حقيقته « بالمشبرح » .





الظّلم أسلَم عاقِبةً من رَخاوَة الحُكم

الحاج قعدان من أصحاب العقول الدواقر ، ومن أرباب الخيال الجامح . فقد دقر عقله منذ سنوات ، عند الأمير بشير الشهابي الكبير ، وراح يوسّع خياله وينسج حوله من الحكايات والروايات ما يفوق ، من حيث الوفرة والجمال ، كلّ التصانيف والتآليف التي اجترحها خيال كتّابنا ومؤرّخينا حول عظمة الشهابي الكبير .

وكان آخر ما طلع به علينا الحاج قعدان ، في السنوات الأخيرة ، ولمناسبة الأحداث الراهنة ، حكاية جديدة ، قال :

– حكم الشهابي الكبير جبل لبنان بحدّ السيف ، ففتك بعمّه ووليّه الأمير يوسف وبابنيه . ثم بصديقه الشيخ بشير جنبلاط ، وكذلك بآل باز جميعاً . مع ذلك وطّد الأمن وأجرى العدل واكتسب ثقة ومحبة مواطنيه ، فقدم اليه قناصل الدول يسألونه كيف استطاع ، مع ذلك ، ان يحكم جبل لبنان ، أكثر من نصف قرن .

أجاب الأمير الشهابي الكبير :

– **الظلم أسلم عاقبة من رخاوة الحكم .**

ويضيف الحاج قعدان :

– وجرى جواب الأمير مجرى الأمثال الى يومنا هذا .



عَوْدٌ على بدء

الأدب الشعبي ، إذن ، هو مجموع المأثورات الشعبية ، أي الحكايات والأمثال والحكم والأساطير والخرافات المتوارثة ، المنقولة من جيل الى جيل ، على ألسنة الناس ، وباللهجة المحكية الدارجة ، والتي يكون مؤلفها مجهولاً في أغلب الأحيان ، والتي تتضمن بلاغةً وجمالاً ، وهي تمثّل واقعاً إنسانياً معيناً .

وبعبارة أدبية مختصرة ، يجب عند فتح ملف الأدب الشعبي ، ان تفوح منه رائحة الأرض عندما يشقها المحراث . او رائحة دخان حطب السنديان حول مواقد الشتاء ، أو رائحة التبن والقمح على بيادر قريتي إبل السقي .

.. أدبُ الحِكمة

في أيّام شبابي تولّيت التدريس في قرية درب السيم في الجنوب . وبالنظر لوفرة التلامذة ارتأيت تعيين معلّم آخر لمساعدتي ، واخترته من أصدقائي .

لكن لم يطل الوقت حتى وقّع سوء تفاهم بيني وبين مختار القرية ، وبعد جلاء الموقف ثبت لي أن زميلي هذا ، إنما كان يحاول ان يطبّق معي سياسة « زِيح حتى إقعد مطرحك ! » .

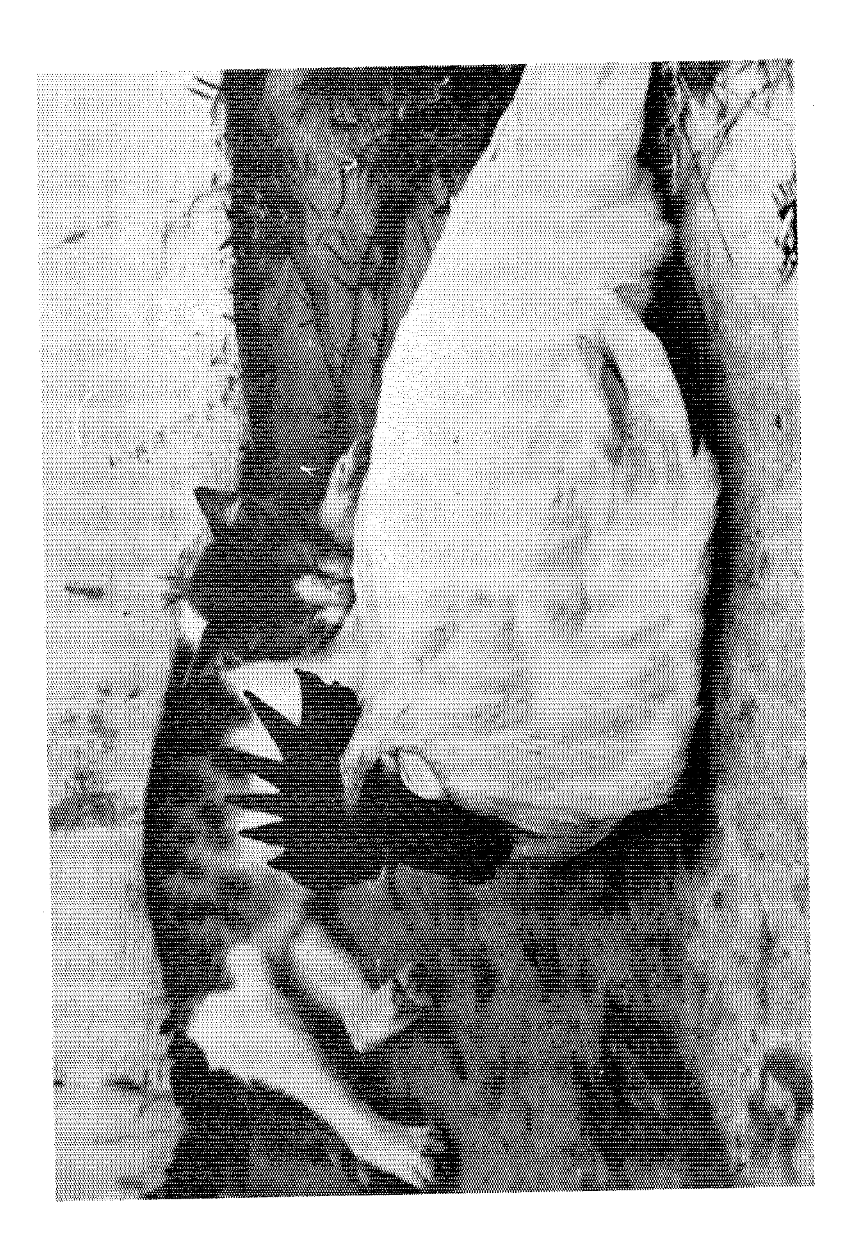
ورحت أشكو أمري الى الصديق الدكتور عزيز إيليا ، فقال : أخطأت سامحك الله ، فالمثل يقول :

— **إربط الحصان حدّ الحمار بيصير بيناتهم عداوة كار !**

وعندما لاحظ الدكتور إيليا امتعاضي من قساوة المثل عليّ أضاف :

— المَثل مِثل الكـيّ يؤلم لكنه يشفي .

فشفيتُ ، منذئذٍ ، وصرت لا أربط رسني إلا حيث أضمن سلامتي .





.. أدب الحكايات

فالأدب الشعبي يؤلّف الحكاية لغاية محض إنسانية .

كان خالي أمين كلّما قدّم لنا رأياً عزّزه بحكاية .. ونهانا يوماً عن التدخل بما لا يعنينا ، قال :

ـ يُحكى أن رجلين ترافقا في الطريق ، وسأل كل واحد منهما الآخر أين يقصد ، قال الأول :

ـ أريد أن أذهب الى المدينة أشتغل فيها عاملاً وأقتصد من أجوري ما يكفيني لأعود وأشتري كل هذه السهول والحقول .

قال الثاني :

ـ وأنا أريد أن أتوجه الى إحدى القرى البعيدة ، حيث أشتغل أجيراً عند أحد أصحاب المواشي وأقتصد من أجوري ما يكفيني لشراء قطيع من الماعز أعود به الى قريتي .

أجاب الرجل الأول :

ـ لا لا ، فأنا لا أسمح لك أن تمرّ بقطيعك في أرضي هذه .

قال الثاني :

ـ ولكنني سأمرّ ها هنا ، مهما كلّف الأمر .

ولم يلبث الرجلان ان تشاحنا ثم تشابكا بالأيدي في معركة ضارية .

وأقبل من بعيد رجلٍ يحمل على ظهر حماره ظرفاً مملوءاً زيتاً ، وسمع ورأى فتقدّم وتدخّل وفصل الواحد عن الآخر ، ثم أقام نفسه قاضياً بينهما ، وسأل عن سبب الخلاف . وعندما سمع إفادة كلٍ منهما تحمّس وسحب خنجره وطعن الظرف ، فسال الزيت عن ظهر الحمار ، وقال :

ــ يسيل دمّي مثل هالزيت إذا كان بروسكم عقل !

العجيبُ والأعجبُ منه

أبلغ ما قيل في المرأة :

ــ بدّك تربح عداوتها ، إمدح جارتها !

يتشاءم القرويون بثلاثة :

ــ الغراب والبومه ، وابن الحكومه

.. أدب الأساطير

كذلك ، فإن الأدب الشعبي يُخوّل نفسه حق استعارة الأولياء الصالحين والأنبياء الأولين لتأليف أساطير تمثّل واقعاً إنسانيّاً معيّناً . كما يُخول نفسه أحياناً ، إسناد بطولة إحدى الأساطير إلى الله عزّ وجلّ لغاية انسانية تتطلّب قناعةً وحكمةً إلهية غير قابلة النقض .

وكان جارنا أبو نعمان لا يقبل بأقلّ من أسطورة ، تأكيداً لصحّة كلامه ، فلا يترك لنا مجالاً لمناقشته ، حدّثنا يوماً عن مصير « أبناء الحرام » ، قال :

— يُحكى أن رجلاً « ابن حرام » كان يجتاز وادياً موحشاً وفطن الى الله ، فتوجّه اليه بضراعة فاترة غير صادقة ، قال :

— يا إلهي أطل عمري ويسّر أمري واحفظ قدري . يا ربّ ، يا معين ، افتح أبواب الرزق عليّ وبحبح المال بين يديَّ . .

وفيما هو متّجه الى السماء بابتهالات تعوزها حرارة الايمان زلت قدمه وسقط على الأرض ، ثم نهض واتجه ثانيةً الى الله ، وسأله لماذا أهمله ، فانتبه الله عزّ وجلّ وقال :

— ولكنني لم أسمح للشيطان بأن يدفش هذا الرجل ، فكيف زلّت قدمه إذن !

وفكّر الله قليلاً ثم قال :

ـ ابن الحرام لا تدفشو ، بيوقع منّو لحالو .

هكذا تجرأ الأدب الشعبي و« أنسن » الله عزّ وجلّ لغاية إنسانية شريفة .

السَّاحِق والمَاحِق

تُعتبر « الدعوات » العجائزية من صميم الأدب الشعبي ، وهي موجّهة الى الله لاستعدائه على أحد الناس . وفي ما يلي بعض الدعوات قطفناها عن لسان أم شحاده ، قالت :

ـ أجراس تدقّ ونعاش تزقّ وكلاب تلقّ

ـ الساحق والماحق والغضب المتلاحق

ـ الحيز والميز ووجع الخاصره والط . . .

ـ سبع ضربات سوا ونار وبارود وكوا

ـ الخيبه وقلّة الهيبه وتفضاية الجيبه

.. أدب الخرافات

حدثني أبو فضّول قال :

ـــ يُحكى أن الحمار والكلب والهرّ ترافقوا في طلب الرزق . وبعد يوم جوع طويل ، جلسوا يتذاكرون ، فذكروا واقع الحال وتطرّقوا الى سوء توزيع الأرزاق ، والتحكّم بالأعناق وسيادة الكذب والنفاق ، فقال الحمار :

ـــ إنني أطلب من الله ان يجعلني ملكاً على الأرض ، فأنشر السلام وأحكم بالعدل بين الأنام .

قال الكلب :

ـــ وأنا أطلب منك ان تجعلني وزيراً في دولتك فأحمي حماك وأبغي مبتغاك .

ولبث الهرّ صامتاً ، فسأله الحمار والكلب :

ـــ وما هي أمنيتك يا أخانا الهرّ ؟

قال الهر :

ـــ **أمنيتي أن أموت قبل أن تحكم دولة الحمير والكلاب .**

فجرى جواب الهرّ مجرى الأمثال الى يومنا هذا .

هكذا يستطيع الأدب الشعبي ان يفعل ما تعجز عنه سائر أنواع الأدب . إنه « يؤنس » الحيوانات والطيور والبهائم ، فنصدّق كلامه نحن الذين عايشنا الحيوانات والطيور والبهائم وسائر رفاق مسيرتنا ، في أيّام حداثتنا .

لكن لعل أولادنا الذين خسروا معايشة هذه المخلوقات الشريفة ، وهم الآن يعيشون عصر التلفزيون والفيديو والكومبيوتر وسائر الاختراعات ، لن يكون في إمكانهم أن « يؤنسنوا » هذه المنجزات الجامدة ويجعلوها مادة حيّة في أدبهم الحديث .

القسم الثالث

جُراب الزوّادة

الأدبُ الشّعبيْ
كيفَ اكتسبته! كيف استوعبته!
كيفَ جعلته قَدَري في الحياة!

تسألونني عن علاقتي بالأدب الشعبي

وشروال جدّي ما زال معلّقاً في شجرة التوت

البيت في القرية له شخصيته الخاصّة . من أبرز خصوصيّاته كانت شجرة توت تقوم في فناء الدار ، وقد اكتسبت مع مرور الزمن ، حضوراً كأنها أحد أفراد العائلة .

وكان الغريب إذا عبر في مسالك القرية يشاهد شروالاً ، أو عدّة شراويل تتدلّى من أغصان أشجار التوت ، فيقف متسائلا !

في ذلك الزمان كان نشر الغسيل في فناء الدار معيباً ، ولا سيّما الألبسة النسائية والثياب الداخلية ، إنما شروال ربّ البيت كان يُنشر وحده ، معلّقاً في شجرة التوت ، للدلالة على ان ربّ البيت رجل ، لا امرأة ، ولا سيّما إذا كان الشروال أنيقاً ومطرّزاً .

هكذا كان الشروال ، قديماً ، أحد رموز العراقة ، فإذا أنكر أهل القرية نسب وحسب أحد أبنائها قال :

ـ شروال جدّي ما زال معلقاً في شجرة التوت .

إبل السقي

كانت إبل السقي إحدى أجمل قرى لبنان الجنوبي ، وكانت بيوتها المسقوفة بالقرميد الأحمر تتلألأ من بعيد كأنها شقائق النعمان في شهر نيسان . فيها ولدتُ ، وفيها نشأتُ ، وحولها نسجتُ أجمل حكاياتي .

وقد عاشت إبل السقي عصرها الذهبي في أيّام حداثتي ، عندما كان أكثر أهلها قرويين يسهرون على المصاطب او يلتئمون حول مواقد الشتاء ، ويتأملّون .. ولعلّ مقدرة القرويين على التأمل في أمور الدنيا ، واتّساع الوقت لديهم لهذه المتعة الرائعة هما التعويض الذي تعطيه الحياة الى المؤمنين بها ، إذ كلّما ابتعد الانسان عن الطبيعة ، كلّما خسر لذّة التأمّل .

وكما كان لكل قرية من قرانا هاجس ، أو عدّة هواجس ، كان هاجس إبل السقي : « دجاجة مع فراخ من ذهب » يحميها رَصَد[1] .

---

(١) الرَّصَد ، في المفهوم الشعبي ، هو روح خفي يحرس كنزاً مخبّأً ، أو سرّاً دفيناً أو إنساناً مسحوراً . وكان عند بعض السَحَرة مقدرة على « فك الرصد » أي إبطال مفعوله .

وكان العابر ، مساءً ، في محلّة « القنا » ، يسمع قوقأة الدجاجة تنادي فراخها ، وكان يحدث أن يراها أحد العابرين ويهمّ بإمساكها ، او إمساك أحد فراخها فتختفي فجأة ، لأن الرصد كان يحميها . . حتى أن الدولة ، صدّقت أن يوسف فاعور ، ناطور قريتنا حظي ببعض الفراخ الذهبية . . فحبسته . .

ومن مرويّات الأولين أن رجلاً من قريتنا ، كان ينقب أرضه ليغرس فيها بعض نصوب الزيتون ، فحظي ببعض الفراخ الذهبية ، وباعها ، وصار أغنى رجل في القرية . ومن ذلك الوقت صار اسم ذلك المكان « جلّ القرقة » ، أي الدجاجة الأم ، الى يومنا هذا .

وعاش ، في أذهان أبناء قريتنا ، هاجس « الدجاجة الذهبية » ، فهبّوا إلى نقب الأرض ، والتنقيب عنها ، ابتداءً من « جلّ القرقة » فجنوباً الى حيث كان بعضهم يسمع أحياناً قوقأة الدجاجة او صيصعة فراخها في المنحدرات الجنوبية . لكن الرصد كان أقوى من أهل القرية ، فكان يحمل الدجاجة الذهبية وينحدر بها جنوباً حتى مجرى النهر .

واختفى ، أخيراً ، خبر « الدجاجة الذهبية » ، بعد أن أنجز أهل القرية نقب الوادي بحثاً عنها . عندئذٍ ، غرسوا الوادي زيتوناً ، وتعهدوه بعرق جباههم وصارت أشجار الزيتون تعطيهم أثماراً أثمن من الذهب .

في السنوات الأخيرة هبّت العاصفة المجنونة على إبل السقي . قسم من ابنائها صمد فيها ، وقسم منهم نزح عنها . فالذين صمدوا هم أصحاب هاجس البحث عن الخبايا ، الذين نقبوا الأرض وغرسوا أحلامهم في ترابها ، وعندما هبّت العاصفة تشبثوا بجذورهم ، وصمدوا .

أما الذين نزحوا ، فهم الذين عاشوا في قريتهم ، غرباء عن تُراثها ، ولم تكن لهم جذور في ترابها ، لذلك قلعتهم العاصفة وشرّدتهم ليموتوا غرباء عن ديارهم .

وصار ، يقيناً ، القول ان علاقة التُراث بالتُراب تمثّل علاقة الشعب بالوطن .



الحكاية أبلغ من الموعظة

كان المعلم اسبر واعظاً بروتستانتياً متنقلاً ، وعندما شاخ انكفأ الى بلدته جديدة مرجعيون ، حيث تولى تدريس اللغة العربية وآدابها في مدرسة المرج العالية . وكان يتحدث بالفصحى ويلفظ « القاف » مفخّمة ، ويحفظ عشرات القصائد بالاضافة الى مئات من الآيات والوقائع المذكورة في الكتاب المقدّس .

لكن وعاء ذاكرته كان قد امتلأ بذخائر الدين والفكر واللغة قبل انكفائه الى ممارسة مهنة التدريس ، لذلك لم يبقَ في ذاكرته مكان يحفظ فيه أسماء تلامذته ، فاكتفى بحفظ اسمي ، دون سائر أبناء صفّي ـ ربما لأنني كنت مثله ألفظ « القاف » المفخّمة ، التي كان يسمّيها « القاف الفصيحة » ـ دون سائر التلامذة .

وكان إذا تعب أو ضاق نفسه ، وهو يشرح لنا إحدى القواعد ، أشار باصبعه الى أحد التلامذة ، وطلب منه ان يقدم رأيه في الموضوع ، ريثما يستعيد هو أنفاسه . لكن لعل هذا كان من ممارسات الوعظ البروتستانتي الذي امتاز بإشراك المؤمنين في ممارسة طقوس العبادة .

وفي أحد الأيام ، كان الكلام عن «إنَّ » وأخواتها ، التي تنصب اسمها وترفع خبرها . قال :

ـــ يجوز أن يكون خبر « إنَّ » جملة فعلية او إسمية ، في محل رفع خبر . ثم قدم لنا بعض الأمثلة .

لكنِ اهتمامي في تلك الساعة ، كان أبعد وأسمى منِ هموم اسم « إنَّ » وخبرها . . كان معلّمنا العزيز يضع نظارتيه تارةً فوق أرنبة أنفه وتارة تحتها ، فتتوازى نظارتاه مع شاربيه كأنهما ، معاً ، بيتان من الشعر على نفس الوزن والقافية ، ورحت أبحث عن التفاعيل الشعرية الملائمة لهما ، فرجح عندي وجود كسرة في رويّ قافية الشارب الأيمن .

وبينما كنت مشغولا في محاولة تصحيح قافية الشارب ، انتقل المعلم اسبر الى اللوح الأسود وكتب عليه بخط أنيق جداً :

« **إنَّ البعوضة تُدمي مقلة الأسدِ** »

ورمى الطبشورة جانباً ومسح الصف بنظره حتى استقرّ عندي ، إذ لم يكن على لسانه غير اسمي ، وليس ، إذن ، في الميدان غير حديدان ، فناداني باسمي وقال :

ـــ البعوضة هي اسم « إنَّ » ، فأين هو خبرها ؟

فوقفت تأدّباً وتلمّظت قليلاً وقلت :

ـــ البعوضة أي البرغشة هي حشرة لئيمة جداً . .

قال :

ـــ ولكنني أسألك عن خبر « البعوضة » !

قلت :

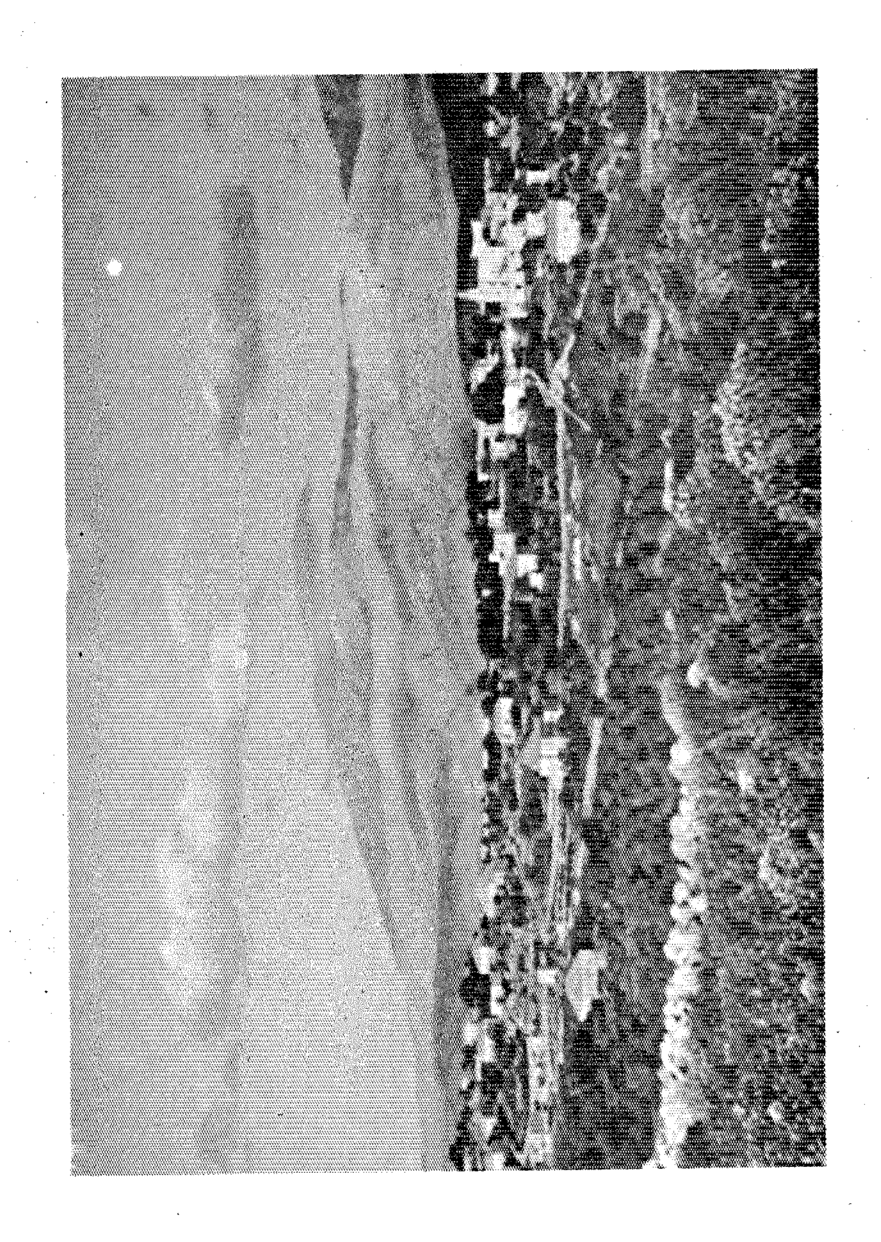
ـ خبرها . . خبرها . . خبرها هو مرض الملاريا .

فعلا ضجيج زملائي التلامذة ، بين مستحسن ومستهجن ، ولم تكن هي المرّة الأولى التي أسلك فيها سبيل المشاكسة . فوقف ، رحمه الله ، يلملم أنفاسه ، ثم شقل نظارتيه بكل هدوء فوق أرنبة أنفه ، دون ان يختلّ الوزن والقافية ، بين نظارتيه وشاربيه ، وقال ، بكل رصانة وهدوء :

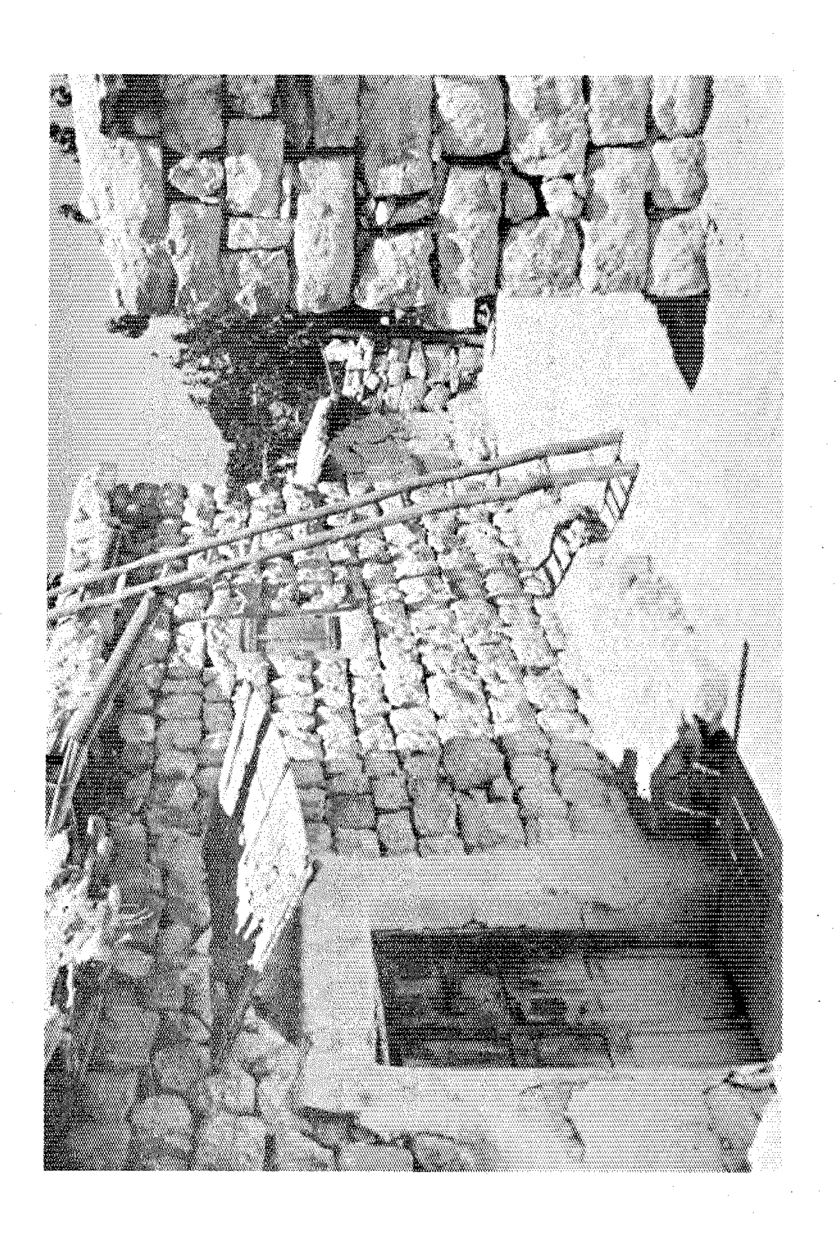
ـ على سيرة البعوضة ، سأحكي لكم حكاية فيها حكمة ، وفيها عبرة لمن أراد ان يعتبر . . . يحكى ان البعوضة التقت ، يوما ، بالبرغوث وقالت له : لساني أفصح من لسانك وألحاني أعذب من ألحانك وبياني أبلغ من بيانك ، مع ذلك أكاد أموت جوعاً ، لأنني كلما دنوت من الناس طردوني ، بينما أنت تشبع وعلى أبدان الناس تسرح وتمرح وتنعم . قال لها البرغوث : ولكنك تزعجين النائمين بكثرة الطنين والعنين ، أمّا أنا فأضمن قوتي برصانتي وسكوتي .

حكى لنا المعلم اسبر هذه الحكاية ، دون ان يزيح نظره عني ، ثم سألني :

ـ وما هي الحكمة التي نتعلّمها من هذه الحكاية ، يا سلام !









في ذلك الزّمان

في ذلك الزمان كانت إبل السقي مسرحاً لاصطراع الأوهام والحقائق . فمذ بدأ العلم بالانتشار أخذت تتسرّب معه تيارات وانحرافات ونظريّات خلخلت بعض القِيَم والمفاهيم وطمست بعض معالم ثقافتنا الشعبيّة ، وأفسدت جمال بعض خيالات آبائنا الأبرياء الصالحين .

فالعفاريت ، كالغيلان والمردة كان لها وجود في قريتنا ، منها عفريت كان يسكن في بئر عمّنا أيوب ، لذلك كانوا يقولون ان البئر مسكونة .

وكان يطيب لجارنا ابو رضوان ان يروي لنا كلّما تحلّقنا حوله ، حديث البئر المسكونة ، قال :

ــ كانت « مرمر » اسماً على مسمّى ، فبالرغم من شناعة سحنتها وقلّة حشمتها ، كانت تقضي نهارها في مجاكرة زوجها الحاج داود الذي ضاق صدره أخيراً بها ، فحملها ورماها في البئر المسكونة ، قائلا لها :

ــ إن شاء الله تكوني من نصيب العفريت .

وحدث ان العفريت المسكين كان متلطياً في البئر قرب

الباب ، فوقعت « مرمر » فوقه وتعربطت بخوانيقه حتى كادت ان تخنقه ، فصرخ مستغيثاً من الألم .

قالت « مرمر » للعفريت :

ــ لن أتركك حتى تخرجني من البئر .

ولئلا تخنقه خرج بها العفريت من البئر وهو على آخر رمق من الحياة . ورجعت وأخبرت زوجها بما حدث معها ، فقال :

ــ لا حول ولا قوّة إلا بالله .

أما العفريت ، فخوفا من قطوع ثانٍ هجر قريتنا وتوجّه الى قصر لأحد زعماء البلاد وأقام فيه ، فروّع سكّان القصر الذين استحضروا العرّافين وشيوخ الطرائق الروحانية ، وعلّقوا على الجدران شتّى الحجابات والتمائم والرُقى والطلاسم ، في محاولة لاخراج العفريت . . وباءت محاولاتهم بالفشل . فكرّس ربّ البيت مكافأة محترمة لمن يستطيع ان يطرد العفريت من بيته . وبلغ الخبر مسامع الحاج داود ، الذي جاء ووقف في باب البيت وصرخ :

ــ إجت « مرمر » !

فهرب العفريت من الشباك ، ورجع الحاج داود بمكافأة محترمة .

عصفورَين بفَردْ حَجَر

كان صالون بيتنا مزيّناً بصُوَر لبعض عظماء ذلك الزمان ، مثل نابليون بونابرت وجورج واشنطن وعنترة بن شدّاد وصلاح الدين الأيوبي وملكة الانكليز فيكتوريا .

وكانت عمتي « كحلا » من «بذار غريب» ، على ذمّة جارنا ابو سعيد ، فقد نفرت عيناها واستدار وجهها وغرق رأسها بين كتفيها ، وتكبتلت وتدعبلت مع الأيام ، حتى صارت أشبه ما تكون بالملكة فيكتوريا ، في أيّامها الأخيرة .

وصار أبو سعيد كلما زارنا يلتفت الى صورة الملكة فيكتوريا ويقول :

ـ يا سبحان الله ! قدّيش الناس بتتشابه ، هذي كحلا يما الملكه فيكتوريا .

فتبلع والدتي لسانها وتسكت على مضض ، لأن المثل يقول :

ـ **الحما حمّه وبنت الحما عقربه مسمّه .**

وحدث ان أنهيت دراستي في مدرسة المرج العالية في مرجعيون سنة ١٩٣٠ ورجعت ومعي شهادة مدرسية برطلت بها

والدتي لكي تغضّ الطرف عن شواذاتي ، فتناولتها والدتي دون ان تهتمّ بقراءة مضمونها ، وتوجهت حالاً الى صورة الملكة فيكتوريا فخلعتها من بروازها ، ووضعت شهادتي في البرواز مكانها وعلّقتها في صدر الصالون ، ودحشت صورة الملكة المنزوعة في كوارة الشعير لكي ينخرها السوس على مهل . ولم تحسب والدتي حساب الأمبراطورية الانكليزية التي كانت الشمس لا تغيب عن أملاكها .

ثم انكفأتْ ودخلتْ وركعتْ وقدّمتْ للمسيح ضراعة حارة ، بأن يُعطي ابنها ـ كما طلبت أم الاسكندر في قديم الزمان ـ حظاً يجعل ذوي العقول في خدمته ، لا عقلاً يجعله في خدمة ذوي الحظوظ .

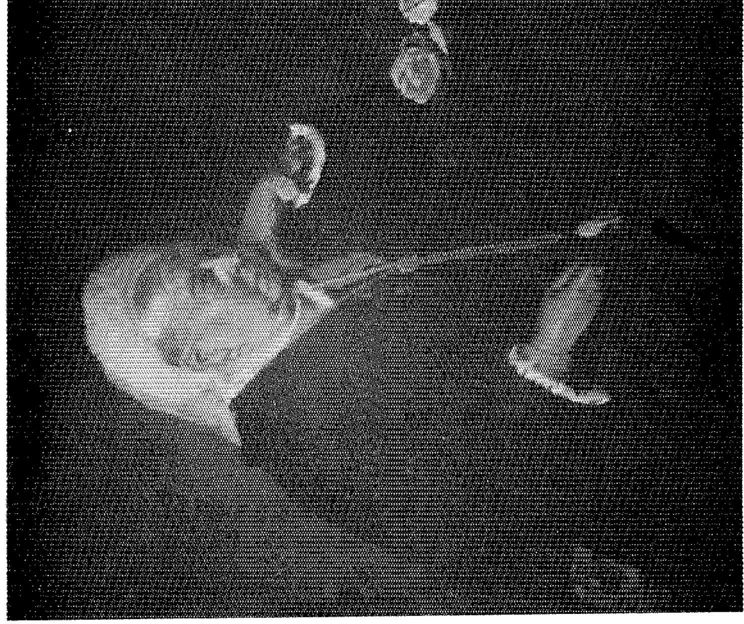


وجاء بعض الجيران والأقارب يهنئون والدتي بشهادتي . ودخل « الحاج خيرو » وهو طبيب ومنجّم كان يتردد على قريتنا ، ويشتري من والدتي ماء الورد ويبيعها أعشاباً برّية لأوجاع مزعومة . وكان يرجم بالغيب ، فطلبت منه والدتي ان يضرب مندلاً[1] على نيّتي وينبئها عن مستقبلي .

---

(١) ضرب المندل من ضروب الرجم بالغيب وهو أن يخطّ ضارب المندل دائرة على الأرض ويستحضر الأرواح اليها ، للاستعلام عن أمرٍ ما .





فرسم الحاج خيرو دائرة على الأرض ، أمامه وراح يتثاءب ويتثاءب ، حتى تثاءب معه بعض الجالسين حول الدائرة . وبعد جهد ومجاهدة حضرت روح مرجان ابن السيسبان من أم حديدان ، وصارت الروح تهذي ، ثم قالت لوالدتي ، بلسان الحاج خيرو :

ـ ابنك كثير العثرات قليل البارات[٢]، منّو قلّة تدبير ومنو تقادير .

فوجمت والدتي وقالت :

ـ لا تضيّقها بوجه الصبي يا حاج الله يرضى عليك !

قال :

ـ يجب ، إذن ان نرقيَه بحجاب مربّع يقيه عثرات الزمان ، أمّا التقادير فأمرها في يد الله .

وهكذا صار ، وكتب لي الحاج خيرو حجاباً مربّعاً أعتصم به وأعود اليه كلّما ساورتني الهموم وشحّت في جيبي القروش والبارات .

---

(٢) البارات جمع باره وهي عملة عثمانية قديمة .

حجاب الحاج خيرو

بسم الله الرحمن الرحيم . رقيتك من عين حاسدة النظر بحرمة سيد الخلق والبشر . رقيتك من العين المقطوعة والطل واللمس بحرمة مولاي النفس . رقيتك من عين المقطوعة الأكل والمعالق بحرمة مولاي السابق . رقيتك من عين الرديّه أحرّ من جمر الغضا بحرمة مولاي المرتضا . رقيتك من عين من غاب وحضر بحرمة الجناح الأيسر . رقيتك من عين المحبّين والمبغضين بخصايص المائة وأربعة وستين . رقيتك بما جاء في كشف الحقايق من عين كل كاذب وسارق . رقيتك من عين كل رب وعزيز بحق ما جاء في رسالة التمييز ، رقيتك من عين كل مَن في المساكن والدور بحق ما يُتلى من السجل الى المنشور . برحمةٍ منك يا عزيز يا كريم يا جواد يا غفور . تمت .

«أبو نبهان» صَديق الانسان

لا يمكن ، بل لا يجوز أن يُكتب تاريخ الأدب الشعبي بدون الاشارة الى دور الحمار والكلب ، رفيقي الانسان ، في مسيرته الطويلة عبر التاريخ .



فالحمار ، وقد كنّاه الأقدمون « أبو صابر » واختصروا صفاته بمثل شعبي بليغ هو :

« الحمار أقلّ الدواب مُونه وأكثرها معونه »

هو مركوب العقلاء والأفاضل ، ولعل السيد المسيح كان أشهر راكبي الحمير في التاريخ .

والكلب ، المكنى « أبو نبهان » ، مجبول من جبلة تراب لانسان ، كما يقول إنجيل برنابا ، لذلك يلتصق بالانسان عند لضيق ويذود عن حياضه عند الشدّة . والكلام هنا عن الكلب

الجعاري البلدي الأمين ، لا الكلب الحديث النحيف السائد حديثاً مع سيادة الجنس اللطيف .

ولا يمكن كذلك ، ولا يجوز أن أكتب خلفياتي الأدبية بدون الاشارة الى دور الكلب والحمار والديك والهرّ والبقرة في تكوين ثقافتي الشعبية .

★★★

في أيّام حداثتي كانت خورية إبل السقي أرملة عمنا الخوري الياس الراسي تقتني كلباً جعاريا مقطوش الذيل مشروم الأذنين ، اسمه « هبهب » ، وكان يقال لنا ان أذني هبهب كانتا مشرومتين نتيجة معارشاته المتواصلة مع سائر كلاب القرية . أمّا ذيله فمقطوعة ، عمداً ، منذ نعومة أظفاره ، لأن الكلب المقطوع الذيل يصير شرساً ، ولأن الشراسة هي الصفة الفضلى في كلاب القرويين .

ففي مفهومهم ان الكلب متى خاف دندل ذيله الى ما بين ساقيه ، وهي علامة الاستسلام ، عند أكثر طوائف الحيوان . فاذا التقى كلبان ، وحدث ان دندل أحدهما ذيله الى ما بين ساقيه ، كان هذا بمثابة علامة استسلام ، فيتركه الكلب الآخر ولا يتقدم لمعارشته .

لذلك يقطع القروي ذيل كلبه وهو ما زال جرواً ، لكي لا يدع له مجالاً للاستسلام ، عند المواجهة . وهكذا يصير الكلب المبتور الذيل مشاكساً بحكم الاضطرار ، ولهذا السبب نستعمل

كلمة « أزعر » أي مبتور الذيل ، في كلامنا عن كل مشاكس قليل الشرف ، من أبناء الحيوان والانسان .

وكان « هبهب » المذكور « أزعر » بكل معنى الكلمة ، يربط الطريق قرب بيت الخورية ويغدر بعجوز تدبّ على عصاها وهي راجعة من الكنيسة ، فيكدشها في بطّة ساقها ، او يستفرد ولداً راجعاً من المدرسة ويكحته بضراوة ، فيصل الولد الى بيت أهله ملحوقاً مقطوع القلب ، وهذا ما كان يستوجب إحضار « طاسة الرعبة » ووضعها على رأس الولد ، لطرد المخاوف من ذهنه ، حسب ظن ذلك الزمان .

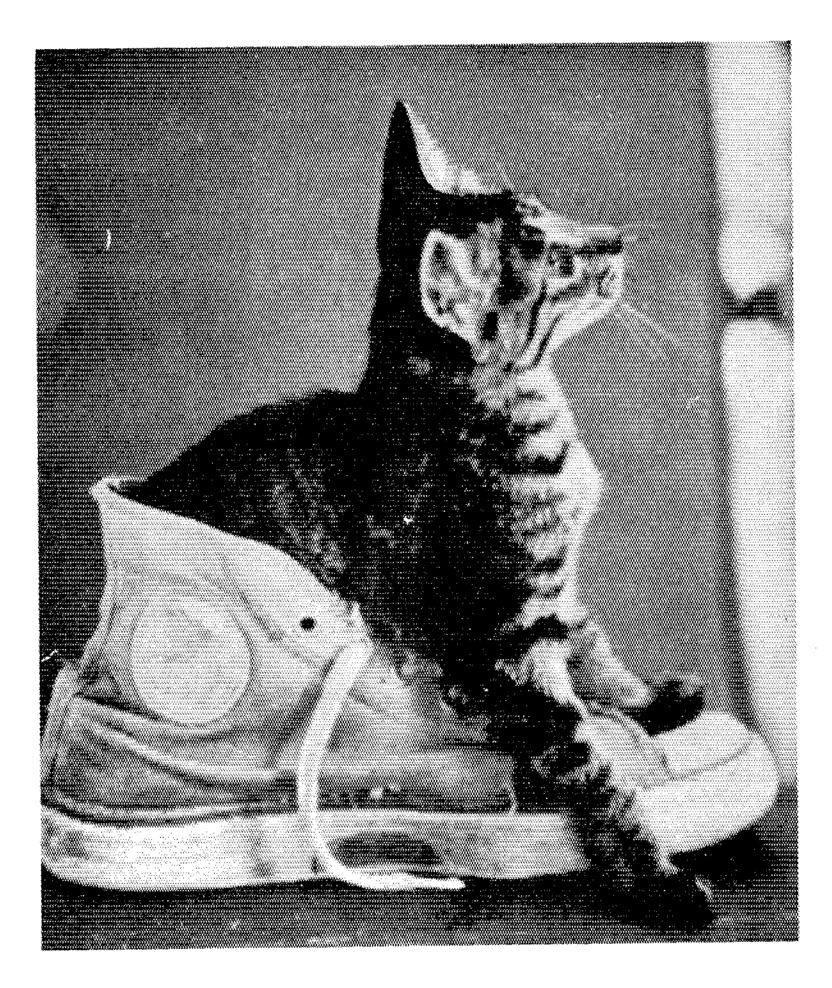
★★★

وكانت « صوفيّه » ابنة الخوريّة تهتمّ اهتماماً خاصاً بهبهب ، إذ لم يكن عندها من تهتمّ به سواه ، لذلك كانت « تمون » عليه عند « تقليط » القادمين والعابرين ، فيقبل وساطتها على مضض .

وعندما تزوّجت « صوفيه » الى رجل من مرجعيون ، مشى هبهب الى جانب فرسها البيضاء ، في موكب عرسها . وعبثاً حاول رجال الحاشية ان يطردوه او يردعوه عن مرافقتهم ، لا بالمليح ولا بالقبيح ، فقال لهم أحد رجال قريتنا : « هبهب طلع بجهاز العروس ، خذوه ! بارك الله لكم به » .

وفي ذات صباح أفاقت الخورية فوجدت هبهب جثة هامدة

على برطاش باب بيتها ، فجئنا نحن صبيان ذلك الزمان وحملناه بكل احترام ، ودفنّاه بكل إكرام ، لأنه عاد أخيراً ليموت في وطنه ، وحب الوطن من الإيمان .



حِمْل جَمَل حَكْي

بعد غياب أكثر من عشر سنوات ، رجع من السودان ، أحد أبناء قريتنا ، ومعه جلد نمر فلشته والدته ومسمرته الى الحائط ، على عيون الناس .

وجاء الشيخ شاهين مسلّماً ، فقالت له المرأة :

ــ تفرّج يا شيخ شاهين ، هذا جلد نمر ، أتعلم كم دفع ابني ثمنه !

قال :

ــ كم ؟

قالت :

ــ خمس عشرة ليرة انكليزية ذهباً .

قال الشيخ شاهين :

ــ ولشو بينعاز ؟

قالت :

ــ ما بينعاز لشي .

قال :

ــ المثل بيقول : اللي ما إلك عازه فيه ، لشو تشتريه !



كنت قد تعلمت هذا المثل منذ حداثتي ، غير أني لم انتفع به . بقيت أشتري أشياء ليست لي عازة فيها ، فقد أنفقت ثلاثة أرباع عمري بحثاً عن المتاعب وشراء هموم الناس ، ناهيك عن السعي وراء أنتيكا المأثورات الشعبية ، التي لا تملأ جيباً ولا تُشبع بطناً .

وحدث يوماً أنني انتقلت في سيارة صيداوية من بيروت ، ونزلت عند مفرق بلدة « جون » أنتظر سيارة متوجّهة اليها . وقبل ان أرمي عقب رابع سيكارة أطلّت سيارة ووقفت إزائي ، واذا صاحبها من أصدقائي ، فسألته الى أين يذهب . قال :

— الى « مزرعة الضهر » ، فوق « جون » ، حيث توجد قطعة أرض للبيع أحاول شراءها بنصف مليون ليرة .

قلت :

— إذن توفّقنا ! وأنا ذاهب الى جون ، حيث توجد عجوز خبيرة بالحكايات ، وهي تخبىء لي حكاية طريفة . .

وقبل أن أفتح باب السيّارة ، قال الرجل :

— شو هالقلّة العقل !

وكبس قدمه بعنف وقلّع بسرعة وتركني على قارعة الطريق .

فتذكرت مَثَل الشيخ شاهين : اللي ما إلك عازه فيه لشو تشتريه ! وقلت ، هذا الرجل على حقّ ، إنّه ذاهب الى مزرعة

الضهر ، ليشتري أرضاً له عازة فيها . . وأنا مقطوع هنا أحاول الوصول الى جون ، لأشتري حكاية !

وكدت أعود من حيث أتيت ، لو لم تصل سيارة أقلّتني الى جون .

★★★

كانت « أم ابراهيم » ، عجوز جون ، تقنع بما قسم الله ، وتشتري وتبيع كلاماً ، وتقتات ، مثلي ، بكفاف المأثورات . سألتها عن حكمتها ، في شيخوختها ، أجابت أنّها « موعودة » .

فقلت :

ـــ بماذا ؟

قالت :

ـــ مثل كل انسان ، في مثل عمري .

وفيما كنت أحاول ان ألتقط مغزى كلامها ، أضافت :

ـــ يُحكى ان ملك الزمان أدركته الشيخوخة ، فجفاه المنام ، وتثاقلت عليه الهموم والأوهام ، قال :

ـــ وماذا بعد طول المقام !

وانتابته لوثة من فلسفات عصره ، فتساءل :

ـــ مَن هو هذا المخلوق الذي اسمه « الانسان » ، كيف جاء الى هذه الدنيا ! وإلى أين يمضي ! وماذا بعد الموت !

وأمر الملك ، في الحال ، ان يأتوه بالعرّافين والمنجّمين والفلاسفة والمتفلسفين والعلماء والفقهاء ورجال الدين وقال لهم :

ــ أريد أن أعرف قصّة الانسان على وجه الأرض : من أين أتى ، والى أين يمضي ، وما هي الغاية من وجوده !

فمضى هؤلاء ولم يرجعوا .

وبعد نصف سنة استدعاهم ، ثانيةً ، وسألهم عن الجواب ، أجابوا أنهم ماضون في تقصّي الحقائق وجمع المعلومات .

وبعد سنة استدعاهم وسألهم عن النتيجة ، قالوا انهم بصدد تنسيق المعلومات وتبييض المسوَّدات ، لوضع الدراسة النهائية المطلوبة .

فغضب الملك وهدّدهم وأنذرهم بأن يقدّموا اليه الدراسة خلال ثلاثة أشهر . وعند انتهاء المهلة حضروا ومعهم حِمْل جَمَل وثائق ومستندات ، ودخلوا وفلشوا الأوراق والمخطوطات والمطبوعات ، بالاضافة الى ملفّات الفواتير والايصالات ، عن جملة الخدمات والرواتب والاضافيّات .

فثار الملك في وجوههم وقال :

ــ أنتم ثلاثة وخمسون رجلاً ، بقيتم سنتين حتى كتبتم هذه المكتوبات ، فهل تطلبون مني أن أبقى عشرين سنة ، حتى أقرأها وأفهم مضمونها !

وأمرهم أن يضبضبوا أوراقهم ويعصروها ويأتوه بالنتيجة مختصرة مفيدة في أقرب وقت ممكن .

وراحوا ، ورجعوا بعد سنة ، ومعهم مجلّد من ألف صفحة ، قالوا :

ـ هذه هي خُلاصة النظريّات والفلسفات والنبوءَات حول أصل الانسان ومصيره .

وكان ملك الزمان قد بلغ من العمر أرذله ، صار سمعه خفيفاً وبصره كفيفاً ودبيب قلبه عنيفاً ، فأمر بوضعهم جميعاً في السجن الى أن يأتوه بكلام مختصر مفيد عن قصّة الانسان على وجه الأرض ، لكي يعرف الملك مصيره قبل رحيله ، لئلا يفشخ في الفراغ .

وانتشر الخبر أن ملك الزمان طبق بالفلاسفة والمتفلسفين والعلماء ورجال الدين وسجنهم أجمعين ، الى أن يأتوه ، عمّا أراد ، بالخبر اليقين .

وحدث أن رجلاً من إحدى قرانا يحفظ حكمة آبائنا الأولين ويسترشد بخبرتهم وتجربتهم في فهم الأمور على سجيّتها ، سمع بمحنة ملك الزمان ، مع العلماء والفلاسفة ورجال الدين ، فوسّع له مكاناً بين الداخلين الى القصر والمتداخلين ، واقترب من أذن الملك وقال له :

ـ أنا أحكي لك حكاية الانسان ، على وجه الأرض ، وهي :

« الانسان : مولود ، ملحود ، وبالجنة موعود !
ولا شيء غير ذلك .

وتضيف أم ابراهيم :

ـ كان أجدادنا يقولون :

« كلمه بمحلّها بتغني عن حِمل جَمَل حكي » .
وهذه الحكاية هي أساس هذا المثل .



أُنشئت مصلحة التعمير، برئاسة أميل البستاني، عقيب زلزال سنة ١٩٥٦، لإعادة تعمير المناطق المتضرّرة، فجئت من إبل السقي وطلبت من البستاني ان يُلحقني بإحدى وظائف المصلحة، فسألني عمّا كنت أتعاطى حتى ذلك الوقت، قلت:

— كنت أفكّ مشاكل.. وأعمل مشاكل، إذا اقتضى الأمر.

قال البستاني:

— نحن بحاجة الى فكّاك مشاكل، شرط أن لا تعمل لنا مشاكل.

ثم سألني ماذا أحمل من شهادات، فقلت ان «شهادتي في رقبتي»، ففهم، بالاشارة، أنني لا أحمل شهادة محترمة، وقال لأحد مساعديه:

— «قيّدوه «مدرّب»».

وعلمت في ما بعد ان راتب المدرّب هو أعلى راتب بين رواتب الموظفين الذين لا يحملون شهادات عالية، فارتضيت براتب محترم لوظيفة غير محترمة.

وبما أنني كنت لا أعرف شيئاً عن أعمال التدريب ، وهي أعمال فنيّة هندسيّة ، انصرفت الى فكفكة المشاكل ، حتى لا أضطرّ الى صنع المشاكل فيما لو كلفوني بأعمال التدريب .



وبدأت بدرس معاملة لرجل من إحدى قرى جبل عامل ، فسألته عن عدد أفراد عائلته ، لكي أحدّد قيمة المساعدة المستحقة له بالنسبة الى عدد أفراد عائلته فقال :

— عندي ثمانية أولاد لله وأنا وزوجتي .

وكانت زوجة الرجل معه ، فطلبتُ منها أن تسمّي لي أولادها ، فذكرت أربعة أسماء وتوقّفت .

فقلت للرجل :

ــ أنت تقول ان عندك ثمانية أولاد ، بينما لا تذكر زوجتك غير أربعة ، فَمَن منكما هو الصادق ؟

قال الرجل :

ــ سلامة فهمك ، سيدنا ، متى كانت إفادة المرأة معتبرة شرعاً في بلادنا مثل إفادة الرجل !

وأنِسَ الرجل مني استئناساً بجوابه ، فاستطرد قال :

ــ اشتكى رجل من قريتنا على رجل آخر بأنّه يُطلق حماره ، من وقت الى آخر ، فيذهب توّاً الى بستان المدعي ويأكل منه ما يأكل ويُتلف ما يُتلف . وقد أحضر المدعي شاهداً أيّد كلام المدّعي وشهد أنه رأى حمار المدّعى عليه ، مرارا في بستان المدّعي .

فال المدعى عليه ان الشاهد عدوّه ، وهو لا يريد إحقاق الحقّ بل إلحاق الأذى به .

فسأله القاضي :

ــ وأين هو حمارك الآن ؟

قال :

ــ حماري يا سيدي ، مربوط على معلفه ، وانا لا أتركه أبداً .

فأمر القاضي بإحضار اثنين من رجال الدرك وقال لهما :

ــ إذهبا مع المدعى عليه الى بيته ، حيث تجدان حماراً مربوطاً ،

تفكان رسنه وتطلقانه ، ثم تتبعان سيره ، فإذا توجّه الى بستان المدعي كانت دعواه صحيحة .

فصاح المدعى عليه :

ـ أرجوك يا سيدي القاضي أن تحكم كما تشاء ، بناءً على شهادة هذا الرجل ، ودع شأن الحمار ، حتى لا يقال ان محكمتكم الكريمة قبلت شهادة حمار أكثر من شهادة رجل ، حتى ولو كان عدوّي اللدود .

كنت أُصغي بشراهة الى حديث الرجل وقد أذهلتني حكايته ، فحملت المعاملة ودخلت بها على أميل البستاني وقلت له :

ـ كنت أحاول أن أفكَّ مشكلاً فوقعت في مشكل أكبر منّي .

كان أميل البستاني يتذوّق طعم النكتة ، وبالرغم من مشاكله الكثيرة كان يُعطي نفسه مجالاً للتأمّل في عقول الناس . قال ، بعد ان رويت له الحكاية :

ـ معلوم ! هذا الرجل عنده أكثر من ثمانية أولاد ، اكتب على مسؤوليتي أن عنده عشرة أولاد .

وابتسم البستاني وأضاف :

ـ ومن الآن وصاعداً سنسمح لك ، ان توسّع ذمّتك مع ظرفاء

القوم ، لكي يشوفوا خاطرك ، يُبرطلوك بحكاية ، بخبريّة ، بمَثَل ، بردّة زجل ، ببيت عتابا . فتجمع هذه المأثورات الشعبية عن ألسنة ظرفاء الناس قبل ان تضيع .

ولم يطل الوقت حتى انتشر الخبر وصار مكتبي دكاناً تباع فيه المعاملات والامضاوات بحكايات وخبريّات ، وتألّب حولي « بيّاعين الحكي » من مختلف الجهات .



الرجال مخبّاية بثيابها

في المفهوم الشعبي ان كنية « أبو علي » ترمز الى مناعة جانب صاحبها ، والى نفوذ كلمته . والمظنون أن يكون أوّل مَن تكنّى بهذه الكنية وأعطاها هذا المفهوم من عظماء التاريخ هو الخليفة الفاطمي الحاكم بأمره ، مؤسس مذهب التوحيد في مصر .

وممَّن تكنّى بهذه الكنية « فخر الملك بن عمّار » حاكم طرابلس السلجوقي ، الذي حارب الافرنج وقهرهم قرب نهر « أبو علي » في طرابلس ، فسمّي النهر باسمه حتى الآن .

ومما يُذكر ان الشيخ بشير جنبلاط ، الملقّب بِ « عمود السما » كان « أبو علي » زمانه .

وها أنذا ، اليوم ، قد أصبحت أبو علي زماني . . لكن مهلاً فأنا أخبر الناس بأني لست في هذا الوارد ، وحكاية تكنيتي بهذه التكنية مذكورة في أحد كتبي المنشورة سابقاً ، ولا إفادة في الاعادة .

وعندما نزحت عن إبل السقي والتحقت بمصلحة التعمير ، تركت « أبو علي » في إبل السقي ، واندمجت في مصلحة التعمير باسم سلام الراسي .

لكن حدث ، يوماً ، أن حضر الى مصلحة التعمير ، رجل من أبناء الجنوب يعرف كنيتي ، وطلب مني ان اهتمّ بمعاملة تخصّه ، فقلت له :

ـ إسأل المحاسبة عن المعاملة وردّ عليَّ الجواب ! »

فذهب الرجل الى دائرة المحاسبة وسأل عن معاملته ، فلم يعبأ به أحد ، فقال بشيء من النزق :

ـ أريد أن أعرف أين أصبحت معاملتي ، لكي أردّ جواباً على الشيخ أبو علي !

فامتقع الموظف المسؤول عند ذكر اسم أبو علي ، لأن أخبار أبو علي ملحم قاسم ، زعيم إحدى الثورات الشعبية في بلادنا ، كانت لا تزال على ألسنة الناس .

وقام الموظف وأخبر مديره ، والمدير قام بدوره ، وأخبر رئيس المصلحة أميل البستاني ، الذي اهتمّ شخصياً بالموضوع . وعندما اكتشف الحقيقة استدعاني وقال :

ـ هذا أنت ! صحيح ان **الرجال مخبّايه بثيابها** .

ومنذئذٍ صار اسمي الرسمي « الشيخ أبو علي » .

ابن أوادم أكثر من اللزوم

في أثناء عملي في مديرية المباني أردت يوماً أن أتفقدّ سير العملِ في ورشة بناء مخفر سريّة بعبدا . وكان الطقس بارداً فلففتُ رأسي وتلفلفتُ بمعطف وانتقلت بسيّارة سرفيس حتى المفرق ، وتابعت مشياً الى مكان العمل .

أمام الورشة كان يقف رجل يدير جبّالة باطون ، فسألته عن أبو خليل ، مناظر مديرية المباني في الورشة ، قال :

— شو بتريد منّو ؟

قلت :

— قل له : إجا بو علي !

قال :

— من شان شو ؟ إذا كان من شان شغل ، مندفع سبع ليرات بالنهار ، إن كنت بتشتغل بسبع ليرات إحمل رفش وانزل عالورشه !

فانفشلتُ وجمدتُ في مكاني ، وساورتني واقعة حال كان يرويها الشاعر الأخطل الصغير في مجالسه . فقد قلّ وجود السكّر في بيروت ، خلال السنوات الأخيرة من الحرب ، وعلم الأخطل

الصغير أن محلّات خالد حسّونه ، في سوق أبو النصر ، ما زالت تبيع السكّر الى بعض الناس ، فقصد بنفسه ودخل الى المحل حيث وجد حشداً من المتدافشين في طلب السكر ، فوقف متردّداً .

ولم تكن مظاهر الأخطل الصغير تدلّ على مكانته ، فلم يفطن أحد اليه ، أخيراً قال صاحب المحلّ لأحد المستخدمين :

ــ شوف هالزلمي المسطول حد الباب شو بدّو .

فتقدّم الأخطل الصغير وقال :

ــ أنا جيت من قبل الشاعر الأخطل الصغير . . بيسلّم عليك وبيترجّاك تحسب حسابو بشويّة سكّر .

قال صاحب المحل :

ــ يكرم الأخطل الصغير ، المحلّ عَ حسابو ، بس شوف يا ابني ، غير مرّه إذا شي إنسان مهمّ بعتك بشي مهمّه ما تجي وتوقف حد الباب مثل السطل بلا علاقه .

كنت لا أزال أسترجع في ذاكرتي واقعة حال الأخطل الصغير ، لأستخرج لي منها مخرجاً من مأزقي الوخيم ، لكن الرجل الواقف أمام الجبّالة ، لم يمهلني حتى أللم أنفاسي ، وقال :

ــ بدّك تشتغل اشتغل ، ما بدّك تشتغل ، أعطينا قفا ظهرك !

فأعطيته قفا ظهري ومضيت .

ورحت أفكّر لماذا استوطى هذا الرجل حيطي . . قلت له اسمي « أبو علي » ، ففعل بي ما فعل ، فكيف لو قلت اسمي « سلام » لعلّه كان معطني قتله . . لا لا يجب أن أثأر منه ، على الأقلّ من أجل كرامة « أبو علي » .

وعاتبت نفسي ، لأنني ، حتى ذلك الوقت ، كنت لم أزل « ابن قرية » ولم أكن قد تلبّست شخصيّة « ابن حكومة » ، كما يجب لمن كان في مثل وظيفتي .

ورجعت الى بيتي ، وبدأت أتمرّن على المراجل ، أنتخي على زوجتي ، وأتمقطع بأولادي ، وأحاول تخشين صوتي وتقطيب جبيني .

وعندما أتقنت تمثيل دور أصحاب السلطة ، لبست بدلتي الجديدة ، وطبّقت سائق سيارة المدير لينقلني ، كمدير مزعوم الى الورشة . وركبت في صدر السيارة وعرّمت ، لأول مرّة في حياتي ، وعلّمت السائق أن يقف قرب الجبّالة وينزل ويفتح لي باب السيارة ويقول :

— شرّف ! حضرة المدير !

ففعل السائق كما أردت ، ونزلت من السيارة ـ نزلة مدير ـ وانتصبت أمام الرجل ذاته ، غريمي ، وصرخت به :

— ليش هالباطون رخو؟ ليش هالبحص كبير؟ ليش هالرمل وسخ ؟

وراح الرجل يسترضيني :

ــ بأمرك حضرة المدير ! على راسي يا بيك !

وأوقف الجبّالة في الحال ، وأحضر لي كرسيّاً ، وأمر أحد معاونيه بتحضير فنجان قهوة . . فجلست متقلقزاً ، وخشيت ان يفضحني السائق ، لأنه بدأ يتغشغش جانباً .

وأخذ الرجل يشقلني بنظره ويهزّ رأسه كأنه اكتشف شيئاً ، ثم قال :

ــ يا بيك ، هل تسمح بسؤال ؟

قلت :

ــ إسأل :

قال :

ــ مش جنابك اللي تدروشت ، وجيت ، الجمعه الماضيه ، وعملت حالك شغّيل فاعل ، حتى تشوف الشغل كيف ماشي ؟

قلت :

ــ هذا صحيح ! ولكن كيف حكمت عليَّ أنني شغّيل فاعل ؟

قال :

ــ الله يسامحك ، أوّلاً : قلت اسمك « بو علي » ، أيمتى كان « البو علي » يصير مدير عام بالدوله . . ثانياً : ما تآخذني ! ما تآخذني ! أنا بعرف « ابن الحكومه » لما بيطلّ عالورشه من أوّل نظره . . بس حضرتك تخبّيت عليّ ، لأن هيئتك « ابن أوادم » أكثر من اللزوم .

عند اختلاف الدول إحفظ رأسك

قد يكون في مقدورك ان تصير عالماً إذا صرفت عشرين سنة في المدارس والمعاهد والمختبرات ، لكن لن يكون بإمكانك أن تصير أديباً شعبياً ولو صرفت عمرك في الدرس والتخصص .

لكي تصير أديباً شعبياً يجب ان تمخر عباب المجتمع . ان تسبر أغوار الجماهير . ان تتشاجر مع سائقي السيارات وبائعي العربات . ان تشاكس رجال الدرك . ان تخالف قوانين الدولة . أن تمثل أمام القضاة في المحاكم . أن تذوق طعم السجون والتشرّد . أن تهاجر . أن تتاجر . أن تحبّ . أن تبغض . أن تثور . أن تشتم . أن تفعل السبعة وذمّتها . أن تحشر في ذاكرتك جميع الهموم والتجارب . أن تؤمن أخيراً ، بالناس ، لأن الأدب الشعبي لا يزهو ولا يزخر إلا بالقيم الانسانية .



كنت أقوم بزيارة أحد الأصدقاء ، فدخل ابو يوسف وقال :

— أخيراً هداني الله إليك .

قلت :

— أبشر يا أبو يوسف ، لعند عيونك .

قال :

ـ رأيت في نوميّ مناماً عجيباً غريباً ، لعلّك تفسّره لي ، وأرجو أن لا تكتم عنّي شيئاً ، لأن أولادي في الغربة ، والمكاتيب تأخرت عن مواعيدها ، وأم يوسف تنتظرني على أحرّ من الجمر .

قلت :

ـ وماذا رأيت في منامك ؟

قال :

ـ رأيت شلعة معزى ، والكرّاز يمشي أمامها ، فتقدّم الكلب



واجتاز قدّام الكرّاز[1] ، فغضب الكرّاز وهجم على الكلب ونطحه في بطنه ، فاندلقت مصارين الكلب على الأرض . . فاستيقظت وأنا أرتعد من الخوف .

كان أبو يوسف يروي ما رأى في منامه وأنا أتساءل كم جنيتُ على نفسي ، عندما حمّلتها مسؤولية معايشة هموم الناس ومعاناة بعض متاعبهم ، وعليَّ ، لذلك ، أن أُفسّر الأحلام وأفكّ الرصد وأحوي الحيّات وأردّ صيبة العين وأربط لسان الوحش وأكتب حجابات للمعربسين والمسرسبين ، وان تكون طاسة الرعبة ، دائماً ، في متناول يدي ، وإلا فكيف أستطيع ان أفتح عقول الناس وأدرس نماذج تفكيرهم وأبني عليها شتّى الأحكام والاستنتاجات ، وبدون أي تكلّف ، سألت الرجل :

— وهل كان الدم الذي سال من بطن الكلب أحمر أم أسود ؟

قال :

— لا أتذكر .

قلت :

— وكيف تريد منّي أن أُفسّر لك منامك ، اذا كنت لا تعرف لون الدم الذي سال من بطن الكلب ؟

قال :

---

(١) الشلعة وهي القطيع ، لها نظام مثلّث المسؤوليات مؤلف من الراعي والكلب والكرّاز وهو التيس الذي يمشي أمام الشلعة .

ـ وماذا تنصحني إذن أن أفعل ؟

قلت :

ـ سلّم على أم يوسف وقلْ لها عن لساني ان تُعشّيك « مجدّره » عليها بصل ولفت وفجل ، مع « لهموجة » بيض بقاورما ، وأن تفرش لك على المصطبة ، تحت نجوم « درب التبّان » ، حيث تنام باكراً ، فتحلم بالكلب والكرّاز ، وتأتيني غداً بالنتيجة .

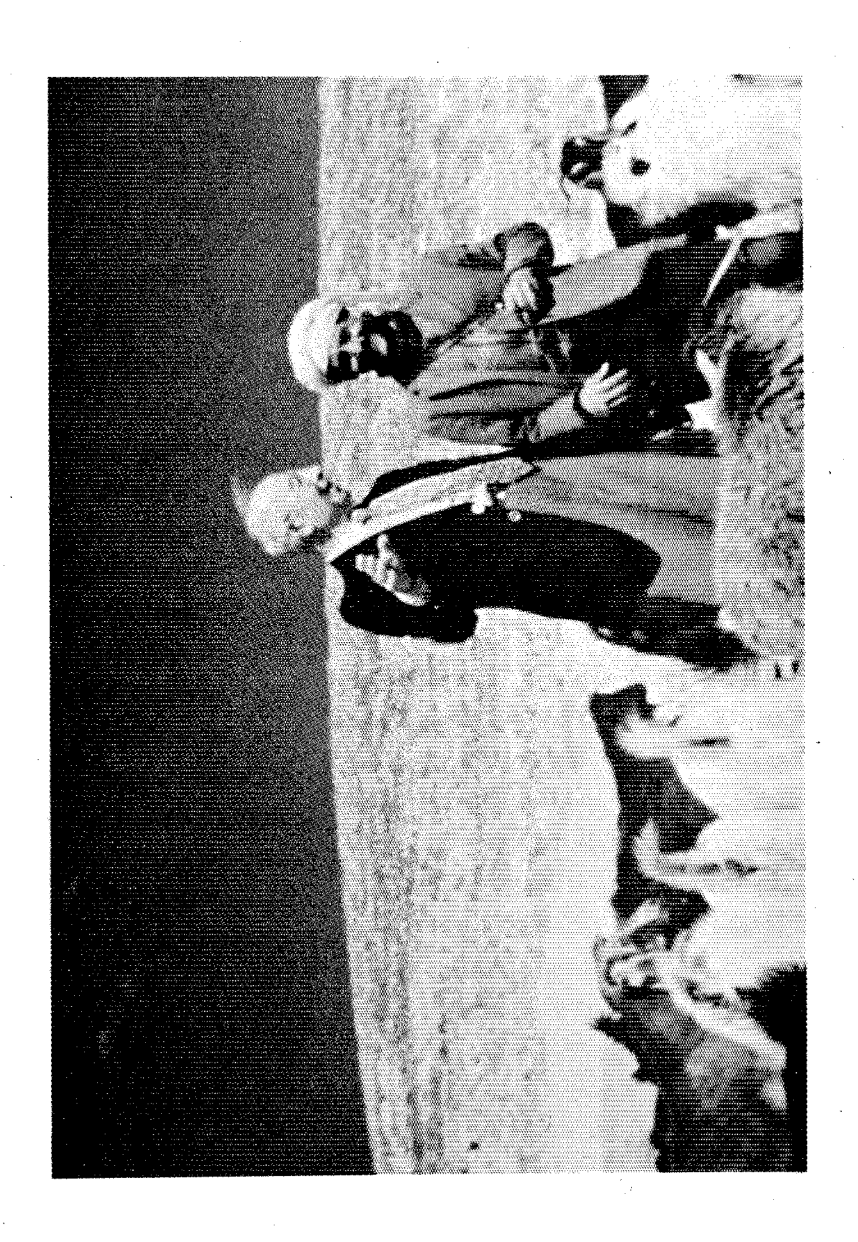
وفي صباح اليوم التالي جاءت ابنة أبو يوسف « تدبّ الصوت » عليّ وتوجّهتُ مسرعاً الى بيت الرجل ، فسمعت صراخه من بعيد : آخ يا بطني ! آخ يا بطني ! . . قال :

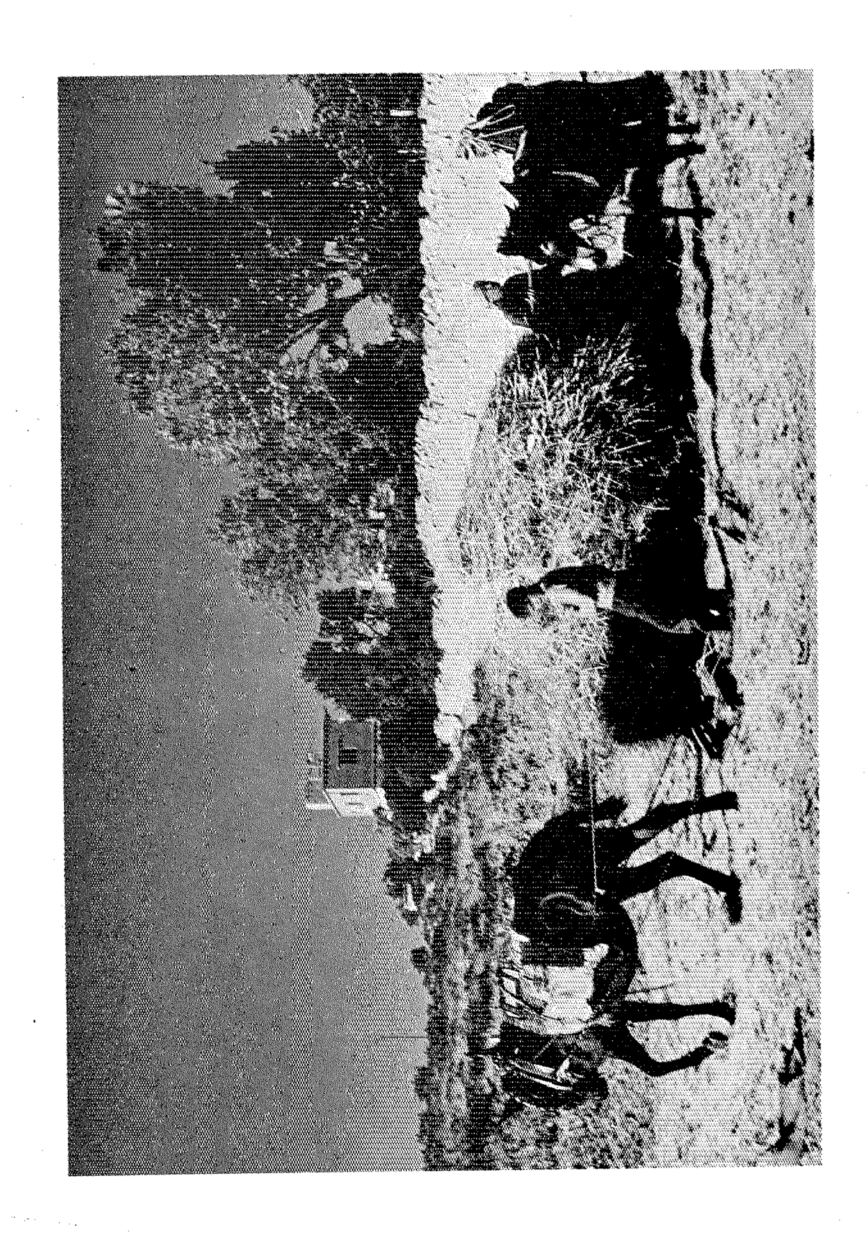
ـ تعشّيت وثقّلت العشاء ، كما أشرت عليَّ ، ونمت على المصطبة . ما غطّت عيني ، حتى رأيت شلعة المعزى ، والكرّاز يمشي أمامها ، ورأيت الكلب يقترب من الكرّاز ، فتقدّمت لأكون على مقربة من المعركة ، لكن ، صحيح ان الكرّاز تيس ، إنه لم يميّز بين الكلب وبيني ، وعوضاً عن أن يهجم على الكلب ، هجم عليَّ ونطحني في بطني ، آخ يا بطني ، آخ !

في اليوم التالي ، بينما كنت أكتب في مفكرتي ان عقول الناس أجناس ، ومَن يعاشر كثيراً يختبر كثيراً ، دخل أبو يوسف وقال :

ـ الحمد لله ، مرّ القطوع بخير ، لكنني تعلّمت من كيسي ، فالمثل يقول :

ـ **عند اختلاف الدول إحفظ رأسك !**







عداوة دهر

منذ ربع قرن تقريباً اشترى لي أبو عجاج ، وكيلي في إبل السقي ، كلباً أحمر اسمه « قشمر » من نوري اسمه أبو كايد ، من نزلاء « سوق الخان » في ذلك الزمان ، بثمن قدره رطلان من التين المجفف وصبّاط عتيق وليرتان .

وكان عندي ديك عزيز اسمه « أبو قاسم » صياحه يشرح الخواطر ، ما ان نهض الى حافّة المسقى وصاح حتى وثب عليه « قشمر » وملص رقبته . فهوّنها علينا أبو عجاج بقوله :

ــ بسيطه ! صار ثمن الكلب رطلين تين وصبّاط وليرتين . . وديك .

وكان عندنا هرّ أنيق رشيق اسمه « هفهف » ما ان خرج الى الحديقة « ليقضي حاجته » في التراب ، وبدأ يحفر في الأرض ، حتى هجم « قشمر » عليه . ونشبت بين « هفهف » و« قشمر » معركة بالسلاح الأبيض تداركناها بسطل ماء على وجه الكلب ـ وهذا ما نفعله في مثل هذه الحالة ـ فقلت لأبو عجاج :

ــ إذهب وقل لأبو كايد ان يأتي ويأخذ كلبه عنّا ، والله يسامحه بما أخذ منّا .

وعندما حضر أبو كايد وأخبرناه ، بما حدث بين الكلب والهرّ ، قال :



ـ وماذا قال الكلب للهرّ عندما وثب اليه ؟

قلنا :

ـ وماذا يمكن أن يقول الكلب للهرّ في مثل هذه الحالة ؟

قال :

ـ يقول الكلب للهرّ : وين رحت بالمصاري ؟ وين رحت بالمصاري ؟

كنت حتى ذلك الوقت أخال أنني أعرف جميع ما قيل وشاع عن الكلاب وعن سائر الحيوانات الداجنة . ولم يكن يخطر لي على بال أن رجلاً مثل « أبو كايد » من جماعة النَوَر ، سيضيف الى جعبتي حكاية جديدة طريفة عن الكلاب ، قال :

ــ تشارك الكلب والهرّ ، قديماً ، في أعمال تجارية ، فقدّم كل واحد منهما خمسين ليرة كرأسمال للشركة ، وتوجّها الى بيروت لشراء البضاعة . فقال الهرّ للكلب :

ــ دعني أحمل المبلغ معي ، فإذا اعترضنا لصوص ، وثبتُ أنا الى رأس إحدى الأشجار ، ونجوتُ بالمبلغ ، في حين تعجز أنت عن تسلّق الأشجار . فسلكت الحيلة على الكلب .

ثم قال الهرّ للكلب ثانيةً :

ــ ولماذا نسلك كلانا طريقاً واحدة ، فيكون هلاكنا معاً ، إذهب أنت بطريق الساحل ، وأسلك انا طريق الجبل ، ونلتقي في مداخل بيروت .

قال الكلب :

ــ واذا أضاع أحدنا الآخر ، فكيف يهتدي إليه ؟
قال الهرّ :
ــ نهتدي برائحة بولنا ، فكلّما قطع أحدنا شوطاً يبوّل على حافّة الطريق ، فإذا أضاع أحدنا الآخر ، اهتدى اليه برائحة بوله .

وسلكت الحيلة كذلك على الكلب .

وصار الكلب ، كلّما قطع مسافةً من الطريق ، رفع ساقه ورشّ قليلاً من بوله على حافّة الطريق . . وهو ما لا يزال يفعله الى يومنا هذا .

أمّا الهرّ ، فصار كلّما أراد ان يبوّل حفر حفرة في الأرض وطمر بوله فيها ، حتى لا يهتدي الكلب اليه مطلقاً ، فيستأثر الهرّ بالنقود . . . وهذا ما لا يزال الهرّ يفعله الى يومنا هذا[1]

وأضاف أبو كايد :

ــ لذلك ، يتذكّر الكلب خيانة الهرّ ، كلّما رآه يحفر في التراب ، ليطمر بوله ، فيثب اليه ويقول له : وين رحت بالمصاري ! وين رحت بالمصاري ! وين رحت بالمصاري !

ما إن أنهى أبو كايد حكايته هذه حتى ناديت أبو عجاج وطلبت منه ان يأتي بما تبقّى عندنا من قفير التين ويعطيه الى أبو كايد ثمن هذه الحكاية ، وقلت :

ــ الحقّ إذن ، مع الكلب ، وما يؤخذ بالحيلة لا يُستعاد إلا بالقوّة ، والمثل بيقول :

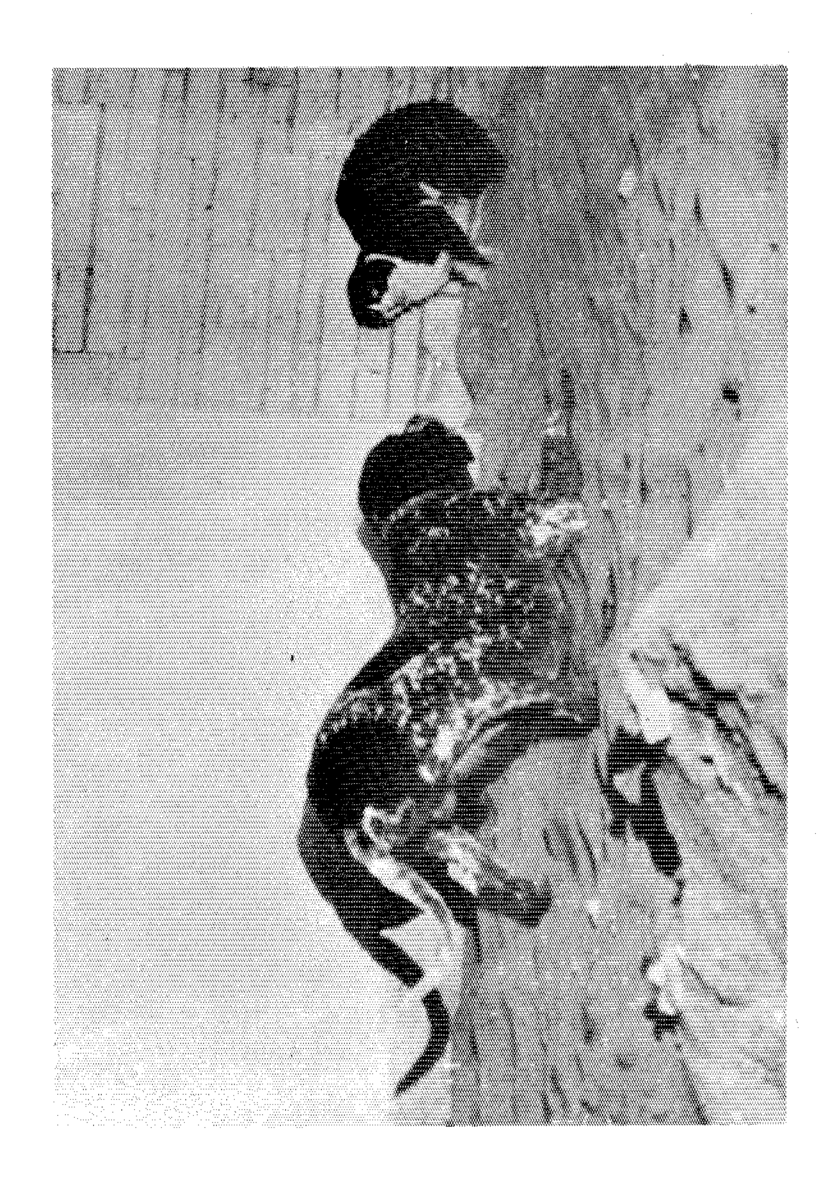
ــ **عداوة دهر ما بتزول لا بيوم ولا بشهر** .

وقررت أن أستبقي « قشمر » ، كلب النوري ، في بيتي ، إلى أن يستوفي حقه من الهرّ « هفهف » .

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، صار « قشمر » ينام في أوّل الليل ثمَّ يستيقظ ويسترسل في عواء رتيب ، وهو ما يُسمّى عند العامّة « بالعوعصة » فأفادنا أحد شيوخ القرية أن الكلب

---

(١) تقول عجائز القرية ان الهرّة ، عندما تعلّم ابنها كيف يقضي حاجته ، او يبوّل ، تقول له : ردّ البوره عالجوره ، وخلّي الدعوى مستوره .





« مبغوت » ، أي أن الضبع باغته في إحدى الليالي ، ونجا منه ، وصار إذا غفا رأى الضبع في منامه ، فيعوص ويحوص كأنّه يستغيث . ولا يفيده إلا « حجاب لمرض السرساب » عند شيخ قرية الغجر .

وتشاءمتْ ، أخيراً عجائز القرية ، لأن عواء الكلب بالمقلوب يجلب الشؤم على القرية ، وحتى لا يُقال إنّنا نتحدّى مشاعر أهل القرية دفشنا « قشمر » الى صندوق سيارة ، وتوجهنا به الى محلّة سوق الخان ، حيث كان أبو كايد يشدّ أطنابه ، فعلمنا أنه ارتحل شمالا ، فتتبعنا أثره ، فلم نحظَ به حتى بلغنا منطقة البقاع ، وهناك أطلقنا الكلب وقلنا له :

ــ أستر على ما شفت منّا !

وحدث بعد سنوات أني كنت مكلّفاً مع زميل لي من موظفي مصلحة التعمير ، بمهمّة رسميّة في بعض قرى البقاع الغربي ، فذهبنا أوّلاً الى قرية كفرمشكي حيث زرنا أقارب لي هناك أكرموا وفادتنا . ثم توجهنا بعد ذلك الى راشيا الوادي حيث رحّب بنا أبناء عمّ لي من كرام القوم . وجئنا بعدئذٍ الى مشغره حيث زرنا بعض أنسبائي فزوّدونا بهدايا من أثمار بلدتهم . وزرنا ، أخيراً بلدة عيتنيت ، حيث حللنا ، على الرحب والسعة ، في منزل رجل من أبناء عمومتي .

وكان زميلي ورفيقي في تلك الجولة يهنئني كلّما دخلنا قرية

فوجدت لي فيها أقارب أصحاب كرم وحميّة .

وتوجّهنا في اليوم التالي الى بلدة القرعون ، وقبل أن نصل اليها ، سألني زميلي إذا كان لي أقارب فيها ، قلت :

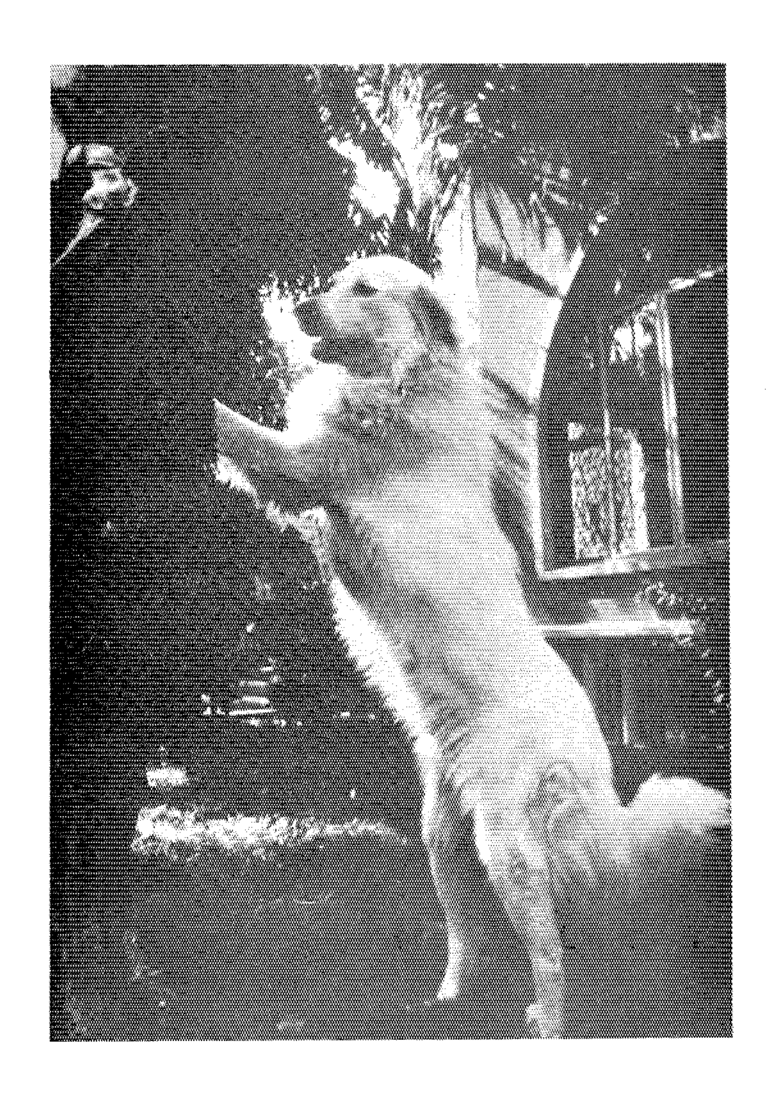
ــ ليس لي أقارب في هذه البلدة ، ولا أعرف أحداً فيها .

وبينما كنا نتناول القهوة في باحة أحد منازل القرية ، إذا كلبٌ أحمر يثب نحوي من بعيد ويضع كلتا يديه فوق كتفيَّ ويُمعن فـيَّ شمشمةً ولحوسةً وتقبيلاً ، ويهزّ ذيله بحرارة ويُنوعص . .

وانتبهت فإذا هو « قشمر » كلب النوري الأحمر ، يكاد يذوب شوقاً إلـيَّ .

حينئذٍ التفت زميلي إليَّ وقال :

ــ ولماذا نفيت إذن أن يكون لك أقارب في هذه البلدة ؟



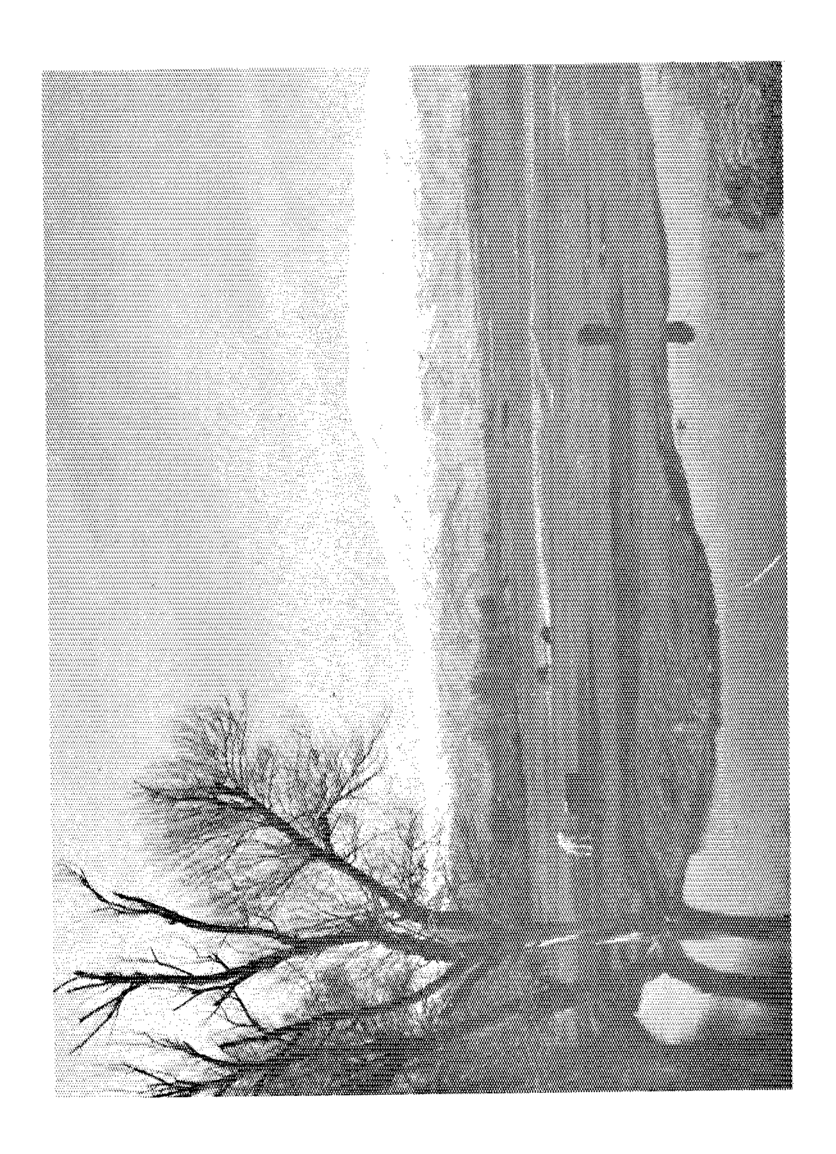


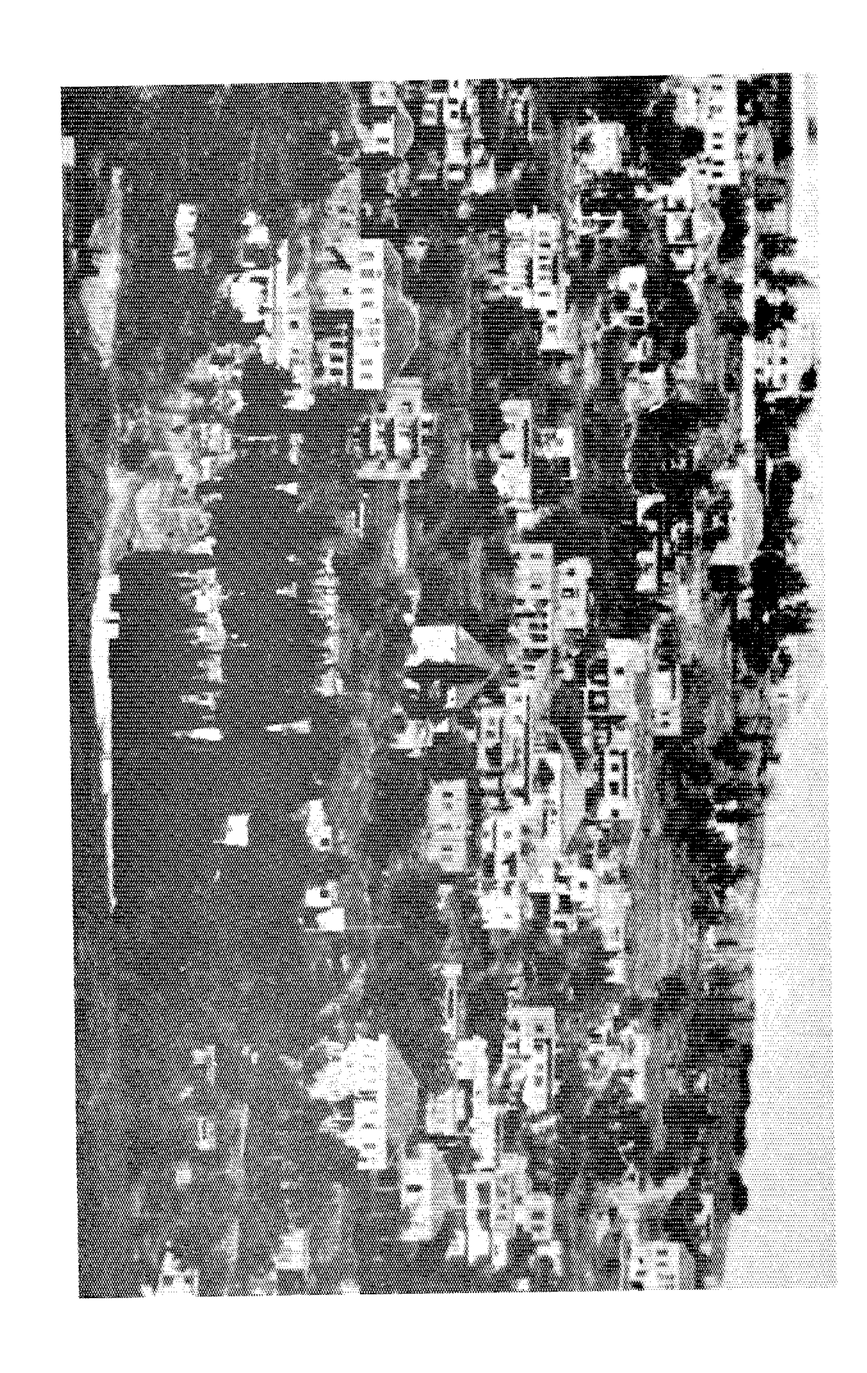
القسم الرابع

برجيس

أما بعد
فهذه حكاية رجل مسكين أرادَ
أن يهرب الى الأمام ، فساء سبيلاً









مجنون "طَرطِقْلو ! بيطير من حبال عَقلو

في ذلك الزمان كانت الشمس تُشرق من وراء جبل حرمون وتغيب خلف مرجعيون ، وقريتنا إبل السقي قائمة في وسط الدنيا ، فلا يختلف يومها عن أمسها ، ولم يكن يعنيها ما كان يحدث خارج حدودها ، لأنّها كانت تشكّل مجتمعاً متكاملاً يتمّم ذاته بذاته ويضمّ جميع العناصر البشرية التي تؤمّن حاجات ومصالح القاطنين في القرية وتضمن استمرار ممارساتهم لمختلف عاداتهم وتقاليدهم وعباداتهم ومفاهيمهم في مجتمعهم الصغير المتكامل .

فبالاضافة الى عدد وافر من الفلّاحين والعمّال الزراعيين ، كان هنالك ، العمّار والنجّار والبيطار والحايك والحدّاد والاسكافي وكاتب الحجابات وحفّار القبور والكاهن والقندلفت والناطور والقابلة والنادبة والمنادي وغير ذلك .

ومنذ سقط خليل رضوان ، آخر مجنون شرعاً ، عن سطح بيته ومات ، خلا مقعد مجنون القرية ، وأحدث غيابه ثغرة في مجتمعنا الصغير . وكان لا بدّ من وجود مجنون آخر يبعث الطرافة في مجالس القرية ويساعد في تحريك ركود الحياة فيها ، وإزالة رتابة أيّامها ولياليها .

لذلك ، وعن حسن نيّة ، رشّح البعض رشيد صافي ـ الذي قيل إنه شُوهد يمشي وهو نائم ـ لهذا الدور في مسلسل تمثيليّات الحياة في القرية .

ورشيد هذا كان يمتهن صنع المسابح ، من بذور الزيتون ، ويبيعها الى المؤمنين ، بما يسدّ حاجته الى لقمة العيش . وفيما كان يحمل مسابحه ، يوماً ، ليعرضها للبيع امام باب الكنيسة ، انتبه الى زمرة من الصبيان « يطرطقون » وراءه ، فقفل عائداً الى بيته ، وفي اليوم التالي انطفأ خبره .

وللأولاد ، كذلك ، أدوار في حياة القرية ، منها دور كشف معالم الجنون عند المشبوهين ، فإذا ظهر أمامهم مشبوه بالجنون ، مَشَوْا وراءَه وراحوا « يطرطقون » له بالتنك والحجارة . وهذا هو أساس المثل الشعبي القائل :

« مجنون ! طَرطِقلو ، بيطير من حبال عقلو »

فإذا « طار المشبوه من حبال عقله » ، أي ، إذا أفلت زمام عقله ثبت جنونه .

لكن رشيد صافي ، قبل أن يطير من حبال عقله ، حمل مسابحه وطار الى بلاد المكسيك ، حيث تبيّن ، في ما بعد ، أنه تعاطى هنالك ، بيع المسابح والصلبان المقدّسة ، المصنوعة من خشب صليب المسيح ، التي أتى بها من البلاد المقدّسة ، والتي كانت تفعل فعل السحر في شفاء أصحاب العاهات المستعصية .

ومات الرجل ، في بلاد المكسيك ، شبه قدّيس ، إذ لا نبي بلا كرامة إلا في وطنه .

القيل والقال ، على مصاطب الرجال

هكذا كان أهالي قريتنا ، حتى إطلالة الحرب العالمية الأولى يمارسون نظام الجماعة ، بحكم المجاورة والمشاغل المشتركة . وكانت أمور ثلاثة تشغل اهتمامهم ، في تلك السنة : ضبع جبل العراضي ، وجنّية عمي مخّول ، وقضية « داحس والغبراء »(١)

ففي خريف تلك السنة تحطّط ضبع « جبل العراضي » على قريتنا ، فإذا تنسّمت كلاب القرية رائحته ، من بعيد ، أو سمعت قرقعة مفاصله ، عوصت من الخوف عويصاً جماعياً كئيباً ، فيهبّ رجال القرية الى بنادقهم يطلقونها في الهواء ، لإنقاذ كلابهم .

أمّا عمّي مخّول فقد كان حاوياً يُخرج الحيّة من وكرها ويكفي

(١) « داحس والغبراء » هي حرب وقعت في الجاهلية ، بسبب خلاف على سباق بين فرسين هما داحس والغبراء ، عُرِفت الحرب باسميهما . وقد دامت ٤٠ سنة ، وكان من أبطالها عنترة بن شدّاد ، ونُسِجت حولها حكايات وأساطير بقيت تتردّد على ألسنة الناس ، وفي بطون الكتب الى يومنا هذا .

الناس شرّها ، ويتقاضى بدل أتعاب مما تيسّر . وكانت له صلة بجنّية « بنت حلال » اسمها « سكون » ، تعيش في وعر « جبل الكراعنة » بخوف الله ، ولا تؤذي أحداً .

وبحكم صداقة « سكون » لعمّي مخّول أنبأته أن حرباً وشيكة الوقوع ستهتز لها أركان السلطنة ، وهذا ما شوّش أفكار الناس وأقلق خواطرهم ، إذ سبق لـ« سكون » أن تنبأت ، سابقا ، بانحباس المطر ، وصدقت نبوءتها .

وكان الحاج عبد النور ، وهو شمّاس الكنيسة ، يتفرغ في بحر الأسبوع لمعالجة قضيّة « داحس والغبراء » ، فيجلس على مسند قشّ فوق جرن الكبّة ، قرب باب بيته ، ويلتئم شمل شيوخ القرية على مصطبته[1] المكوّرة عن يمين الباب وعن يساره ، فيتناول عن الرفّ كتاباً عتيقاً تفلفصت بعض أجزائه من كثرة الاستعمال ، ويبدأ بالقراءة من حيث انتهى في الليلة السابقة .

وكانت قصّة عنتر والزير وتغريبة بني هلال[2] وقصة علي

---

(١) المصطبة هي مقعد حجري طويل متواصل ، قرب مدخل البيت ، حيث يجعل الرجال قيلولتهم في أكثر الأحيان ، ويكون طول المصطبة متناسباً مع وجاهة صاحبها .

(٢) « تغريبة بني هلال » تروي أخبار بطولاتهم عندما تغرّبوا من الجزيرة العربية الى مصر ، فشمالي أفريقيا ، فالمغرب ، لذلك يسمّيها البعض « التغريبة » .

الزيبق وسيرة الملك سيف بن ذي يزن وألف ليلة وليلة وحرب البسوس[3] تملأ فراغ الأذهان في ذلك الزمان ، فاذا اكتمل النصاب على مصطبة الحاج عبد النور ، رجع الى قضية « داحس والغبراء » ، أو إلى « حرب البسوس » ، وقرأ ما دار من الكرّ والفرّ والنزال والقتال بين جسّاس بن مرّة والزير أبو ليلى المهلهل ، فينقسم الحاضرون بين مؤيّد لجسّاس ومتحيّز للزير ، وتبلغ الحماسة ، أحياناً ، حدود المشاجرة بين جُلاّس المصطبة .

وكان الحاج عبد النور يُطلق على بعض جُلاّس مصطبته أسماء يختارها لهم من قصّة الزير ، حسب الاستنساب ، مثل شيبون وهمّام ونبهان وكليب وغير ذلك .

وفي ذات نهار ، وقبل انتهاء إحدى المعارك بين « ذياب بن غانم » و« أبو زيد الهلالي» في « تغريبة بني هلال » ، أقبل من رأس الزاروب « رجب جاويش » مع ثلّة من العسكر على ظهور خيولهم ، فأطبق الحاج عبد النور كتابه ، وقال :

- **الله ينجّينا من شرّ ولاد الحكومه !**

---

(٣) « حرب البسوس » وقعت في الجاهلية بين قبيلتي تغلب وبكر ، بسبب مقتل ناقة ، ودامت ٤٠ سنة ، ومن أبطالها جسّاس بن مرّة والزير أبو ليلى المهلهل .

طَراطيش الحَرْبُ جاءَت مِن الغَربُ

وصدقت نبوءة « سكون » جنّية عمّي مخّول ، واضطرمت نيران الحرب بعيداً ، في أوروبا ، في خريف تلك السنة[1] .
فصار عمي مخّول يتصدّر مصطبة الحاج عبد النور ويتكلّم كَمَن له علم ببواطن الأمور ، قال :

ــ الحرب اشتعلت في الغرب ، ولا بدّ أن تصل شراقيط نارها الى إبل السقي ، لأن المثل يقول :

« **ما بيجي من الغرب شي يسرّ القلب** » .

ولم يكن عند الحاج عبد النور ما يقول ، لأن « **حكي القرايا شيء وحكي السرايا شيء آخر** » . وما يصحّ في « حرب البسوس » لا يصحّ في حروب هذا الزمان ، لذلك ترك قصة الزير وتناول الكتاب المقدس . وقرأ ما جاء في الانجيل :

ــ « لأنه تقوم أمّة على أمّة ومملكة على مملكة وتكون مجاعات وأوبئة وزلازل ، ولكن هذه كلّها مبتدا الأوجاع »[2] .

---

(١) ١٩١٤

(٢) إنجيل متى اصحاح ٢٤

وأضاف الحاج عبد النور :

ــ ولعلّنا في آخر الأوقات .

ولم تلبث الحرب ان اتسعت رقعتها ووصلت طراطيشها الى بلادنا . فخاضت السلطنة العثمانية غمارها ، الى جانب المانيا ، وأعلنت النفير ألعام ، وتجنيد شبّان السلطنة ، على دفعات ، وسوقهم الى المعسكرات لتدريبهم على استعمال السلاح ودفعهم الى خطوط القتال .

وبدأت منذئذٍ ، مداهمات « رجب چاويش » ، رئيس مخفر مرجعيون ، تتوالى على قريتنا ، في طلب الذين بلغوا سنّ الخدمة ، على دفعات متتالية ، أو في ملاحقة الفارّين من معسكرات التدريب ، أو من خطوط القتال ، لإنزال أقسى العقوبات في حقهم .

لكن الله كان رحيماً ، فلم يسدّ باب الفرج في وجه طالبيه ، لذلك كان على أي شاب يريد التخلّص من مشقّات الحرب أن « يشوف خاطر » حسني أفندي ، أحد متنفذي ذلك الزمان ، الذي كان يصطحب الشاب الى ديوان القائد العسكري ويشهد له أنه غير صالح للخدمة العسكرية ، بعد أن يقبض المبلغ المرقوم من الشاب ـ لاقتسامه في ما بعد مع القائد ـ ويستحصل له على إفادة بعدم أهليته لخدمة العَلَم .

وكان على حسني أفندي ، إذن ، أن يختلق علّة في كل شاب

يطلب إعفاءه من الخدمة ، لكي يُبنى قرار الاعفاء على حيثيات قانونية .

ولوحظ في تلك الأثناء ان المدعو عبدو ، من شبان القرية ، صار يخرج من بيته ويده معلّقة برقبته ، مدّعياً أنه وقع من التينة وفكش كوعه ، كما شوهد المدعو جبّور وهو يعرج على غير جاري عادته ، مدّعياً أنه وقع عن الحائط وفكّ وِرْكَه . . لكن أبو ناصيف . . وهو من « أصحاب الشوفة » في القرية كان يؤكّد أن عبدو وجبّور هما من عملاء حسني أفندي .

ما يُقضَ بالمال يقضَ في الحال

كان عسّاف الجلالاتي ، الملقّب بـ« برجيس » قد التحق في أيام شبابه ، بأحد الأديرة لدراسة طقوس الكهنوت ، على أمل صيرورته كاهناً لكنيسة إبل السقي ، غير أن اهتمامه بقصص عنتر والزير وذياب بن غانم كان أكثر من اهتمامه بأخبار القديس لوقا ويوحنا الانجيلي ويشوع بن نون وسائر أنبياء الكتاب .

لذلك لم تطل أيّامه في الدير ، فرجع ليتابع مهنة أبيه في

صنع الجلالات[1] ، لدواب القرية ، والمثل يقول :

« **صاحب صنعه مالك قلعه** » .

وقصارى القول ان برجيس كان على شيء من العلم وعلى جانب من البحبوحة ، غير أنه كان يتظاهر بالكفاف ، لكي لا يفتح أعين الناس عليه . وكانت زوجته «لطيفه» على طبطاب كيفه ، غير أنها لم تنجب له ولداً ، فاكتفى بما قسم الله ولكن أبو ناصيف كان يتهمه بأنه من جماعة « عدم الامكان » .

وتداركا للملل ، بسبب رتابة مهنته ، كان لا يفتأ يتحيّن الفرص لارتياد مصطبة الحاج عبد النور والاستماع الى مرويّاته . ومع أنه كان من حزب الزير أبو ليلى المهلهل ، فقد أطلق عليه الحاج عبد النور لقب « برجيس » وهو ملك الروم ، أحد أعداء الزير ، في معلّقته المشهورة .

وجاء ، يوماً ، مَنْ يُخبر « برجيس » أن اسمه ورد في لائحة المطلوبين للخدمة العسكرية ، وأن رجب جاويش ، لا بد قادم مع رجاله ، في مداهمة وشيكة للقرية ، فقلقت أفكاره ، وراودته ، أوّلاً ، فكرة الفرار ، لأن « **الهريبة ثلثين المراجل** » ، لكنّه راجع أفكاره عندما فطن الى نصيحة أمّه التي كانت تقول : « **تعلّموا الحكمة من الدجاجة** ، فهي لا تعرف كيف تتراجع ،

---

(١) الجلالات جمع جلال وهو البردعة المثبّتة على ظهر الدابة لركوبها أو تحميلها .

وإذا فُوجئت ، هربت دائماً ، إلى الأمام » .

فسأل برجيس زوجته لطيفه :

ــ وكيف نستطيع ، يا ترى ان نهرب الى الأمام !

قالت لطيفه :

ــ نهرب الى الأمام ، بمواجهة قسمتنا في الحياة بحكمة وشجاعة ، فنعود الآن الى ما خبّأناه لغدرات الزمان ، والمثل يقول : « **قرشك الأبيض ليومك الأسود** » . . . قم ، إذن ، واذهب سرّاً ، وتدبّر المسألة مع حسني أفندي ، لأن :

« **ما يُقضى بالمال ، يُقضى في الحال** » !

قال برجيس :

ــ إن ما يُقضى بالمال يُقضى في الحال . . . ما أثمن هذه الحكمة التي كنّا قد تعلّمناها من جارنا أبو عيد ، ثم اختبرناها بالممارسة ، وهي أقصر وسيلة للوصول الى نتيجة ، ولا سيّما مع الحكام ، والمتحكّمين ، وما كان يصحّ في الماضي يصحّ الآن . وقد يصح في كل زمان ومكان . . . هاتي لي خمس ليرات عثمانية من الكيس الأحمر المخبّأ تحت المزرب ، ريثما أرتدي شروالي وأشدّ زنّاري ، وعلى الله الاتكال .

اللّي لا هُوَ مِنْ أَهلَك ولا أنت من أَهْلو، كل ما جَنّ افْرَحْلو!

بعد يوم طويل قضاه حسني أفندي بتلفيق العاهات ، حسب المناسبات ، لإنقاذ بعض المطلوبين للخدمة العسكرية : هذا أعرج ، وهذا أدكش ، وهذا أفكح ، وهذا أكتع ، وهذا فركوش ، وهذا بلبوش ، وهذا أجوص ، وهذا أطرش ، وهذا أعور . . . حتى ضاقت ، بالتالي ، عنده الحِيَل ، دخل الى ديوان القائد العسكري ، ومعه « برجيس » وقال :

— وهذا أخيراً ، يا سيّدي ، المدعو عسّاف الجليلاتي ، الملقب « برجيس » من إبل السقي ، إنه يا سيّدي ، لا يصلح للخدمة العسكرية ، لأنه ، لأنّه ، لأنّه ، يا سيدي . . . لأنّه مجنون » .

فانتفض « برجيس » وحملق في وجه حسني أفندي ، وهمدر :

— صحيح ! فلو لم أكن مجنوناً لما سلّمتك رسني ومشيت خلفك مثل الحمار .

فقال حسني أفندي :

— وهل تريد يا حضرة القائد ، برهاناً على جنونه أسطع من هذاالبرهان ؟

فحدّق القائد ، ملياً في وجه برجيس ، وتمعّن في حركاته وإشاراته ، وقال :

ــ حقّاً إن الجنون فنون ، كنت قد اختبرت في زماني ، عدّة أنواع من الجنون ، ومنها أنواع في غاية الغرابة ، فهنالك « المهووس » الذي يشكّل خطراً على المجتمع . وهنالك « المصروع » الذي يشكّل خطراً من ذاته على ذاته . وهنالك « المعتوه » الذي يعيش بيننا ، ولكن في دنيا غير دنيانا . وهنالك « المأفون » المتأرجح بينَ بين . وهنالك « الطلطميس » الذي طلمس الله عقله ، فصار لا يميّز بين الخطأ والصواب . كما أنني أعرف كذلك ، بعض الأفراد الملهمين المترنّحين بين العبقرية واختلال العقل . أمّا هذا المجنون الماثل أمامي الآن ، فلا أعرف ، حقّاً في أي خانة يجب تصنيفه ، إنّه على كل حال مجنون .

ثم التفت القائد الى كاتبه وقال :

ــ اكتب أن عسّاف الجلالاتي الملقّب « برجيس » من إبل السقي ، مجنون . ثبت جنونه بما لا يقبل الشكّ ، جنوناً قطعيّاً ، غير قابل الشفاء ، وهو لذلك غير مؤهل للخدمة العسكرية .

وعندما خرج حسني أفندي ، من لدن القائد ، أسدى الى برجيس نصيحة من « ابن حلال » ، قال :

ــ عليك ، من الآن وصاعداً ان تُثبت جنونك بكل وسيلة

ممكنة ، وإذا ثبت العكس ، تعرّضتَ للملاحقة القانونية بتهمة الخيانة ، وربما كان جزاؤك الاعدام .

وقبل ان يبتعد برجيس ، ناداه حسني أفندي وأوصاه :

ــ كُنْ منذ الآن ، مجنوناً في عيون الناس وحكيماً في عين نفسك ، وإيّاك ، ثم إيّاك ، ثم إيّاك ان تسلّم سرّك الى زوجتك ، لأن **النساء أصل كل بلاء** . فالأسرار هي أرسنة الرجال ، وإذا سلّمت رسنك الى زوجتك جرجرتك وقهرتك .

اللّي بَدَّك تحَيّرو خيّرو

شعر برجيس بطول الطريق بين مرجعيون وإبل السقي ، لكنّه ، والحق يقال ، كان يتمنى ان تطول أكثر فأكثر ، لكي لا يصل أبداً . . . وراح يستعيد ، في طريقه ، ماجريّات يومه ، قال :

ــ إذن أنا مجنون ، بحكم القانون ، وعليَّ أن أكون مجنونا في نظر أبناء قريتي ووفق إرادتهم ، لكن يبدو ان هنالك عدّة أصناف من الجنون ، وعليَّ أن أختار منها لنفسي ما يناسبني . . فكم كان القائد رحيماً بي عندما أنار أمامي سبيل مستقبلي ، فليكن اختياري

إذن ، موفّقاً ، أنا لا أُشكّل خطراً على المجتمع ولا على ذاتي ، ولا أُحبّ التأرجح بينَ بين ، أفضّل أن أكون معتوهاً ، فأعيش بين الناس ، ولكن في دنيا غير دنياهم . . لكن لعل الله يكون رحيماً بي ، هو الآخر ، فيُطلمس عقلي حتى لا أميّز بين الخطأ والصواب .

وفيما كان لا يزال يشغل عقله باختيار ما يناسبه من أصناف الجنون ، شعر بشيء من الارتياح ، لأنها كانت المرّة الأولى ، في حياته ، التي يتمتع فيها بحريّة الاختيار ، ولو بين أصناف الجنون ، قال :

ـ لقد فُرِضت عليَّ جميع ظروف حياتي : أتيت الى هذه الدنيا بدون استشارتي ، ولم يأخذ أحد برأيي عند تسميتي باسمي ، وفُرض عليَّ الانتماء الى عائلة ليس لها شأن في الحياة ، بدون علمي وموافقتي ، وفوق كل ذلك ، فُرضت عليّ مهنة صنع الجلالات لحمير القرية ، فنشأتْ بيني وبين الحمير علاقات ودّ متبادلة . . وكان قدري كذلك ان أرِثَ بيتاً قديماً عن والدي وأعيش فيه مدى حياتي ، كما فرضت عليَّ الأقدار أن أنتمي الى قرية معيّنة وطائفة معينة ، بدون علمي وإرادتي . . . حتى زوجتي لطيفه ، لم يكن لي رأي في اختيارها زوجة لي ، بل اختارتها لي والدتي ، بمعرفة الخوري الياس . . . إنني أفطن ، للمرّة الأولى ، الى هذه الحقائق ، وهذا ، لعمري ، يدلّ على ان عقلي ما زال في

رأسي ، بالرغم من ارادة حسني أفندي ، وأنا قادر ، إذن أن أميّز بين الخطأ والصواب . . . لا لا ما دمت الآن ، أتمتع ، ولأوّل مرّة في حياتي ، بحرّية اختيار مستقبلي ، ولو في دنيا الجنون ، فليكن موقفي منذ الآن ، بين الملهمين المترنّحين بين العبقرية واختلال العقل . . . ولكن ، إذا كنت أنا الآن أعرف رأيي بنفسي ، وأكاد أعرف رأيي بالناس ، فهل تراني أعرف ، منذ الآن رأي الناس بي ، غداً ، وأي صنف من أصناف الجنون سيختارونه لي .

وعندما اقترب من مدخل القرية ، قرر ان يوقف عقله عن التفكير قال :

— إذن أنا لست أنا ، فمن تُراني أكون ؟

لكنه ما لبث أن تحسّس جبينه بحثاً عن سلامة عقله ، وأضاف :

— ولكنني ، كائناً من أكون ، أنا على كل حال مجنون ، سأطرق ، قريباً زواريب قريتي ، وسيتبعني صبيان القرية ، ولا شكّ ، و« يطرطقون » لي بالتنك والحجارة . وهذا مخيف حقّاً ، فقد يفلت زمام عقلي من هول الطرطقة ، ويصدق بي أخيراً ، ظن حسني أفندي .

ثم فطن إلى أنه قرأ في الكتاب المقدس ان النبي أليشع مرّ يوماً في قرية بيت إيل ، فتبعه صبيان القرية « وطرطقوا » له ،

« فطار من حبال عقله » ، والتفت الى ورائه ونظر إليهم ولعنهم باسم الرب ، فخرجت دبّتان من الوعر وافترستا منهم اثنتين واربعين ولداً[1] ، قال :

ـ عجيب أمر الأولاد ، إنّهم يستوطون حائط المجانين والأنبياء على حدٍ سوى .

وما لبث ان استدرك وقال :

ـ عفوك وغفرانك يا ربّي ، فقد تجنّيت على أحد أنبيائك وأسأت فهم إرادتك ، وكل ذلك حدث نتيجة سوء استعمال عقلي . . . فبسبب جنوني ، وبشفاعة حسني أفندي أُعفيت من خدمة الدولة ، فهلاّ تلطّفت يا ربّي ، بشفاعة النبي أليشع ، وأعفيتني من عقلي .

وراجع أفكاره ، أخيراً ، بسبب ما علق في ذهنه من أمر النبي أليشع . وكما تنسحب الشعرة من العجين ، قرّر ان يسحب نفسه من فئة الملهمين ، لأن الإلهام هو كذلك من خصائص الأنبياء والقدّيسين .

وخلع ثيابه ليدخل القرية عارياً ، فنبح عليه من بعيد كلب بيت الجنا ، وما لبثت أن هاشت جميع كلاب القرية ، لأنها

---

(١) سفر الملوك الثاني الأصحاح الثاني .

شعرت بطارىء غريب ، قال :

ـ لا بدّ أن تكون ، إذن ، للجنون رائحة مميّزة ، وإلاّ فكيف استطاعت كلاب القرية ان تكتشف أمري ، وقد تكون هنالك « عداوة كار » بين الكلاب والمجانين ، وهذا ما سأجعله من اهتماماتي اليوميّة .

وما لبث ان شعر بقشعريرة ، فاستنتج بأن الجنون لم يختمر ، بعد ، في جسده ، فالمجنون لا يشعر بالبرد ، وأضاف :

ـ وهذا ، لعمري ، من حسنات الجنون .

عاد فارتدى ثيابه ، ولكن بالمقلوب ـ فالمجنون لا يميّز بين الخطأ والصواب ـ وعرّج على مقصبة بيت سلامه ، وقطع قصبة ، ركب عليها ، واقتحم القرية من مدخلها الشمالي ، قال :

ـ طالما أنا لست أنا ، فالأفضل أن أكون ، إذن ، الزير أبو ليلى المهلهل .

وطفق يعدو فوق صهوة قصبته وينشد :

يقول الزير أبو ليلى المهلهل أنا في الحرب قيدوم السرايا
حصاني كان بالهيجا مجلّي ورمحي كان دلّال المنايا

الجُنون والحَبَل .. وركوب الجَمَل

وصل « برجيس » المتلبّس شخصية الزير الى محلّة المقيل ، في وسط القرية ، حيث كانت العجول تقضي قيلولتها . وإذ لم يكن للعجول عهد براكب القصبة ، نقزت وتنافرت الى بيوت أصحابها الذين أقبلوا مستطلعين ، ووقفوا مذهولين إزاء ما حدث .

كان برجيس ، هو الآخر ، قد انهزم في أول مواجهة مع العجول ، فانعطف جانباً ، وتسلّق جدار تصوينة بيت الكيكي ، واتخذه مطيّة له ، وراح يضرب الجدار ، من ورائه ، بالقصبة ويحثّه بعقبيه ، كما يحثّ الفارس فرسه عند دخول الميدان .

وكانت « أم شحاده » بين العابرين في المكان ، فسمعت وقشعت وأخذتها نشوة لم تستطع ان تكبتها في صدرها ، قالت :

ــ المثل ما قال شي كذب :

« **الجنون والحَبَل وركوب الجمل ، ما بيتخبّوا على أحد** » .

وأسرعت « أم شحاده » تزفّ النبأ الى زوجة الرجل ، ونادتها من الخارج :

ــ روحي ضبضبي زوجك عن جدران بيوت الناس ، قبل ان

يفطن اليه الأولاد و« يُطرطقوا » له ، لعلّه لا يزال في إحدى زوايا رأسه ذرّة من العقل .

فهرولت المسكينة الى حيث كان زوجها يمتطي الجدار ويحثّ خطاه ، كأنه في غمرة النزال ، وصاحت بمرارة :

ـ عسّاف ! يا عسّاف ! يا عزّ دياري . . يا برجيس . .

ولما لم يلتفت إليها ، مزّقت ثوبها ونثرت شعرها وبكت وشهقت ونشجت ، ثم ركعت ودقّت صدرها وصرخت بكل ألم :

ـ يا إلهي ! نجّني من الشماتة !

وبلغ الخبر مسامع شيوخ القرية من جُلاّس مصطبة الحاج عبد النور ، فهرعوا هم ، كذلك ، مستطلعين ، واقتربوا من راكب الجدار ونادوه باسمه وسألوه عن حاله واشتغاله ، فلم يلتفت إليهم ، بل تابع إنشاده :

يقول الزير قهّار الأعادي أنا السبع الجسور بكلّ وادي
إذا جرّدت سيفي فوق مهري حصدتُ جموعهم يوم الجلادِ

فهزأ به أبو ناصيف ، أحد شيوخ المصطبة ، قال :

ـ كنا ننتظر ، بين حين وآخر ، ظهور مجنون جديد فذّ خطير الشأن ، وها أنت يا راكب الجدار ، قد أصبحت مجنون قريتنا المنتظر ، فعلى الرحب والسعة .

فقاطعه الحاج عبد النور :

ـ ليس المقام ، يا أخي أبو ناصيف ، مقام دعابة ، فنحن الآن إزاء حالة طارئة يجب ان نعالجها بحكمة وروِيّة ، فالجنون ، حسب معرفتي ، يكون على أصناف مختلفة ، منها ما هو قابل الشفاء ، ومنها ما هو مستعصٍ . فهنالك مرض « الخشخشة » ، ومن أسبابه الإدمان على الشراب . وهنالك « السرساب » ، ويعالج بتعليق الأحذية العتيقة فوق الأبواب . وهنالك « ضجيج العقل » ، ومن أعراضه روكبة الكلام على الكلام ، بدون انتظام . وهنالك « الشرشرة » ، ومن أسبابها انفخات جراب العقل ، من سوء الاستعمال . وهنالك « الصرصعة » وهي تحدث غالباً ، عندما يفلت طرطزان[1] لسان الانسان ، فيعمد الى تعطيل عمل عقله بكثرة تشغيل لسانه ، وهذا المرض ، لعمري ، يصيب النساء أكثر مما يصيب الرجال . . . لكن ، لعلّ أخانا هذا مصاب بمرض « القرقعة » ، فإذا تخلخلت مفصّلات دماغ الانسان ، بسبب شدّة القهر أو خيانة الدهر صار يسمع وحده ، دون سواه ، أصوات دحقرة همومه في رأسه . . .

فقوطب عليه أبو ناصيف بقوله :

ـ مهما كان ، يا أخي الحاج ، نوع جنون هذا الرجل ، فآخر

---

(١) الطرطزان هو قوس الفخ .

دواء هو الكيّ ، على أنني لا أرتأي الآن استعمال الكيّ ، لأنّه مما يؤنسنا ويزيل عن صدورنا هموم الحرب ، وجود هذا المجنون ، راكب الجدار في ما بيننا . إنه يصنع جلالات للحمير وليس عنده حمار يعتليه ، فلنتركه يبلّ قلبه باعتلاء الجدار ، فيتداوى بدائه .

كان برجيس ما زال يحثّ خطى حصانه ، فوق جدار تصوينة بيت الكيكي ، عندما حضر عمّي مخّول وترجّل عن ظهر حماره « سيسبان » ـ الذي كان يسمّيه على اسم أحد ملوك الجان ـ وحين علم أن برجيس انتحل شخصية الزير ، وهو يخوض الآن معمعان الوغى فوق صهوة قصبة ، تناول حبل الكلام ، قال :

ـ أنا بحكم اضطلاعي في معالجة الأفاعي وإخراجها من جحورها ، أستعمل طريقة « شدّ وارخي » ، فإذا دخلت الحيّة جحرها ، تشبثّت فيه ، فلا أستطيع أن أسحبها من ذيلها ، حتى ولو انفصم ذيلها عن سائر جسمها من كثرة الشدّ ، لكنني أقبض على ذيلها ، وأشدّ وأرخي ، بالتناوب ، فإذا شدّتْ أرخيتُ قليلاً ، حتى ترتخي فأشدّ . . ولا ألبث أشدّ وأرخي حتى ترتبك الحيّة وتنهار وتخرج مسحوبة بذيلها . . ولا بدّ لي الآن ، من تطبيق عملية « شدّ ذيل » مع جاري هذا برجيس ، راكب القصبة وسيّد الجدار ، الذي كان يراعي خاطري كلّما صنع جلالاً لحماري هذا ، فيكرمني برسن جديد .

ثم التفت عمّي مخّول الى برجيس وقال له :

ـ أنا جسّاس بن مرّة ، أتحدّاك أيها الزير ، ان تهبط وتمتطي حصانك ، وليكن بيني وبينك رهان جديد .

فتململ راكب الجدار ، ثم هبط وركب قصبته ، فاعتلى عمّي مخّول حماره ، وبدأ الرهان .. وعلا ضجيج الاستحسان ، واختلط صياح الأولاد بوقع حوافر سيسبان ... وما هي إلا دقائق حتى جلّى حصان برجيس على حمار عمّي مخّول الذي ترجّل في الحال وصافح خصمه المغوار وهنّأه واحتضنه ومشى به الى بيته وأدخله بكل احترام ، ونادى لطيفه وأوصاها ان تكافئه على فوزه في حلبة السباق « بمقلى كشك » وعلى الله الاتكال .

الطّـلسم : يُلقي جَبلاً على جَبل ويبلو الذّكر بالحبَل

تبلبلت أفكار عمّي مخّول ، تلك الليلة ، فلم يذق طعم الكرى ، وعندما أصبح الصباح ، جاء يتفقد برجيس ، فوجد زوجته لطيفه تلطم خدّيها ، بيديها ، وتندب سوء حظّها ، قالت ان برجيس ركب ، ويا للعار ، قصبته وخرج لتوّه .

قال عمّي مخّول ، بجدّ ووقار :

ـ إسمعي يا ابنتي ، يجب ان نعرف مقدار اختلال عقله . أنا

أسألك ، أجيبي ! ماذا فعل زوجك ليلاً ؟ هل تعرّف عليكِ ؟ هل فكّر بكِ ؟ هل كان يلتفت الى مكان معينّ في جسدك ، في أثناء الحديث ؟ فالرجل يتكلم مع زوجته عن أشياء كثيرة والمطلوب واحد ! . . . قولي لي يا ابنتي ولا تكتمي عني شيئاً ، ماذا حدث بعد انطفاء السراج ، وهل جرى ، عند الاختلاء أي ابتغاء ؟ إني أسألك بصراحة ، هل لاحظتِ عنده ميلاً الى فعل الحلال كما سائر الرجال ؟

فنكست لطيفه رأسها وقالت :

— وهل كان بإمكاني ، أن أفكّر ، إلا بمصيبتي !

فاستدرك عمي مخّول وقال :

— لعلّ شدّة اهتمامي بالموضوع حملتني على تجاوز حدود اللياقة ، فأنا إنّما أريد ان أفهم الى أي درجة أغلق الله عقل زوجك وشغله عن المألوف في مثل هذه الظروف . فالمجنون جنوناً عارضاً يفقد عقله ، لكنّه لا يفقد شوقه الى ما كان يألفه في هنيهات صفو خاطره ، والمثل يقول :

« **الغول أكل جميع الناس ما عدا زوجته** » .

وفرك عمي مخّول جبينه ، كأنه يبحث عن حلول جديدة ، وأضاف :

— ولكن إذا كان ذلك كذلك ، فأمامنا أربعة احتمالات :

الاحتمال الأول ان يكون زوجك « مقروناً » ، « فالقرينة » وهي روح شرّيرة مخيفة تداهم النائم في منامه ، وتستبد به في أحلامه ، ويقال ان لكل إنسان قرينة ، وإني أتذكّر ان قرينة عمّتي رفقة كانت تداهمها في أحلامها ، فتستيقظ مذعورة في بعض الليالي ، وعندما بالغت القرينة في ترويع عمّتي المسكينة لم تلبث ان فقدت عقلها .

الاحتمال الثاني ان يكون زوجك « متبوعاً » « فالتابعة » هي كذلك ، روح شرّيرة من نوع الأبالسة ، تتبع السائر وحده في الطريق ، وتناديه باسمه ، فإذا التفت اليها اختفتْ ، وهكذا دواليكِ حتى يفرط الرجل . ويظن الحاج فضّول ان طاسة الرعدة[1] ، ربّما استطاعت ان تلملم فرافيط عقل الرجل المتبوع ، إذا جرى استعمالها « على الحارك » . والاحتمال الثالث أن يكون زوجك « مصاباً بالعين » ، « فالعين » الحاسدة تفعل فعل السحر ، وكان والدي يقول :

« **إذا وقعت العين على حجر المطحنة فلقته فلقتين** » .

والاحتمال الرابع أن يكون زوجك « مُعربَساً » ، نتيجة طلسم مخطوط مخبّأ في مكان ما ، والطلسم ، كما يقال : « **يلقي جبلاً على جبل ويبلو الذَكَر بالحبل** » . وفي هذه الحالة يجب

---

(١) طاسة الرعدة او الرعبة هي طاسة من النحاس نُقشت عليها بعض الرموز والآيات الدينية ، يُسقى المصاب منها وتوضع على رأسه ، فيما ترافق ذلك تمتمة بعض الابتهالات الخاصة .

فكّ الطلسم بطلسم آخر ، بواسطة أحد أصحاب الطرائق الروحانية .

وتراجع عمّي مخّول ووقف قرب الباب وأضاف :

ــ ولكن ما لنا ولهذه التفاصيل ، فعندنا الآن ما هو أشدّ وأدهى ، فقد داهم القرية ، منذ الصباح ، رجب جاويش ، وقبض على أكثر من عشرين شاباً ، ومضى بهم الى حيث يعلم الله . فلعلّنا ، والحالة هذه ، يجب ان نشكر الله على نعمة الجنون ، لأن الدولة العليّة ، لم تصل بعدُ الى حد تجنيد المجانين .

ثم سحب ضبوة جلد من زنّاره ، تناول منها « قرن حيّة » ، وقال :

ــ خذي قرن الحيّة هذا وخبئيه تحت وسادة زوجك ، وحاولي ان تحاولي . . . كما أشرنا الآن ، فقد يحدث الانطواء من فتور الاغراء . . وقد يستطيع قرن الحيّة هذا ان يفكّ عقدة الطلسم . . ولكن عليكِ أن تحاولي . . .

وقبل أن يدير عمّي مخّول ظهره قالت لطيفه :

ــ صدّقني يا خالي ! ان مصيبتي بجنون زوجي أخف من مصيبتي بشماتة أم شحاده التي كنت أتخذها صديقة لي ، لكن « **الحيه ما بتنحط بالعبّ** » .

فأدار عمّي مخّول ظهره وتمتم :

ــ صحيح ! والمثل بيقول :

« شغله ما عليها رباط : صداقة مرا لمرا ، والصحوه بشهر شباط » .

.. وبئسَ المصير ، على ظهور الحمير

وتوالت مداهمات رجب جاويش الى قريتنا في طلب الرجال للخدمة العسكرية وكان سنّ المطلوبين يرتفع ، بين حين وآخر ، فبعد نوبة أبناء العشرينات ، جاءت نوبة أبناء الثلاثينات ، ثم الأربعينات ، حتى كادت القرية ان تخلو من رجالها ، بعد أقل من سنتين على ابتداء الحرب .

وصارت أخبار السوء ترد تباعاً : واحد من أبناء القرية مات في إحدى المستشفيات العسكرية بداء التيفس . قتيلان في إحدى المعارك . صريع من الخبيط في أحد المعسكرات . ثلاثة شبّان انطفأ خبرهم . جرحى وأسرى وانقطاع أخبار . . وبدأت نساء القرية يلبسن ثياب الحداد ، الواحدة بعد الأخرى .

مع كل ذلك ، كان برجيس يخرج يوميّاً راكباً قصبته ويجتاز الزاروب عدواً كأن الأمر لا يعنيه . ومع ان أخبار المفقودين من

أبناء القرية أقلقته ، لكنّه كان يشعر بشيء من الطمأنينة وهو فوق صهوة قصبته .

وفطن يوماً ، الى أن الأولاد ألفوا حضوره وأقلعوا عن الطرطقة وراءَه . وصاروا يمشون عن يمينه وعن يساره ، في ذهابه وإيابه ، ويمدّون معه شتّى الأحاديث ، قال :

— لا يجوز ان أعقل لساني ، إطلاقاً ، عن الكلام ، فقد احتاج اليه يوماً ، للدفاع ، في مواقف الرجال ، عن سلامة عقلي .

وصار إذا جلس تحلّق الأولاد حوله ، وراح يروي لهم أخبار مجانين آخرين يركبون القصَب ويخوضون الحروب ، ويصيرون ملوكاً وحكاماً وأبطال تواريخ .

ومع بزوغ الفجر في إحدى الليالي ، أفاقت القرية ، واذا هي مطوّقة بطابور من الجنود الأتراك . فدبّ الذعر في قلوب مَن تبقّى من الرجال ، لكن سرعان ما تبيّن أن نوبة المطلوبين ، هذه المرَّة ، تتناول حمير القرية ، لا رجالها .

كان الجنود الأتراك الزاحفين جنوباً ، بحاجة الى دواب ينقلون بواسطتها الذخائر والمؤن والوقود ، لذلك صادروا جميع حمير قريتنا ، وتلطّفوا ووعدوا بإعادة الحمير بعد انجاز مهمتها في خدمة السلطان . لكن أشيع ، يومئذٍ أن جنود السلطان ما لبثوا أن امتطوا صهوات الحمير ، فكان « سيسبان » حمار عمّي مخّول مطيّة قائد الفرقة .

وبعد انقضاء شهرين على قريتنا بدون حمير ، سمع عمي مخّول نهيق حماره من بعيد ، مع شروق الشمس ، فهبّ لملاقاته ، لقاء الأحباب بعد طول غياب . فكان حمار عمّي مخّول الوحيد بين حمير القرية الذي رجع الى قواعده سالماً .

هكذا كادت القرية ان تخلو من رجالها . . ومن حميرها ، في نفس الوقت . لكنها لم تكن تخلو من الدعابة والمقدحة ، حتى في أحرج الأوقات . فقد روّج أحد الظرفاء ، عن لسان أبو شاهين ، قوله ان خسارتنا بحميرنا لا تقلّ عن خسارتنا برجالنا ، فاعترضته إحدى النساء وحسرت العقال والكوفيّة عن رأسه وقالت له :

ــ يا أقرع النحس ، متى كان يحق لك ان تتكلّم في مجالس الرجال !

وانتشرت النكتة ، حتى طرقت مسامع برجيس ، راكب القصبة ، فلم يتمالك عن الضحك علناً . ثم آخذ نفسه بسبب فهمه للنكتة ، قال :

ــ هذه نكتة طريفة ، والطرائف لا يستوعبها غير الأذكياء من العقلاء ، فالطرافة وهي ابنة عم النباهة ، محرّمة على ضعفاء العقل والمجانين .

ثم انصرف الرجل الى التأمّل ، إذ ليس التأمل وقفاً على

العقلاء وحدهم ، وقد تكون فسحة التأمل عند المجنون أوسع مما هي عند العاقل .

وكان عقله قد دقر ، غصباً عنه ، عند مضمون النكتة ، قال :

ـــ إن السلطنة العليّة ، صانها الله ، تخوض الحرب برجالنا ، ثم بحميرنا ، ولم تربح غير الهزائم وسوء السيرة ، فليتها تجرّب الحرب بالمجانين ، فأصير أنا إذن ، قائداً عظيماً ، وأُعطى لقب باشا ، وهذا حقٌ ، فالتمّنيات غير المعقولة هي من سمات كبار المجانين ، وهذا لعمري ، دليل قاطع على أنني صادق مع نفسي تمام الصدق .

وحدث ان عبر يوماً ، في الزاروب ، « رجب جاويش » ، مع نفر من رجاله ، على صهوات خيولهم ، وخطر في بال برجيس ان يمتحن جنونه معهم ، على اعتبار ان المجنون لا يميّز بين أبناء الحكومة وأبناء الشعب ، فاعتلى متن قصبته ، وراح يعدو وراءهم ويصيح :

ـــ يقول الزير أبو ليلى المهلهل . . .

ولمّا كانت خيول الدولة العليّة خائرة العزم من الجوع خارت وجفلت أمام خشخشة قصبة برجيس وقلعت أحد فرسانها عن صهوة جواده .

وبما أن المجنون لا يخاف ، ولذلك لا يهرب ، تناوله الجنود وأوسعوه ضرباً ، فلم يسترحم ولم يستغث ، لأن المجنون ، كذلك ، لا يشعر بالألم .

ثم عزّى نفسه بأنه كان منسجماً مع نفسه ، قال :

ــ ولكن ليس المطلوب ، فقط ، ان أتصرّف كمجنون ، بل ان أفكّر ، كذلك ، كما يفكّر أي مجنون في مثل هذا الموقف . فأنا لم أنهزم في هذه المعركة مع الدولة ، بل انهزمتْ القصبة التي كَبَتْ بي في ساحة الوغى ، فداسها الجنود وسحقوها ، وبناءً على ذلك ، أقرّر ، منذ الآن ، أن أترجّل .

لكنه ، فيما هو عائد الى بيته تصدّى له « بارود » كلب بيت الشبعاني ، ونهشه في قرق شرواله ، فراجع أفكاره ، قال :

ــ هذا الكلب اللئيم لم يكن ليتجاسر ويستوطي جانبي ، لو كانت القصبة ما زالت في حوزتي ، يجب إذن ، أن أحسب حساب الكلاب ، من الآن وصاعداً .

قَــلِّلْ كلامَك ، يُحْــمَدْ مَقامك

فغسلت لطيفه وجهها وسرّحت شعرها وأصلحت هندامها ، قالت :

ـــ لعلّ خالي مخّــول كان على حقّ ، فالرجال أقوياء الجسد ، ولكنّهم ضعفاء الارادة يغرقون في قصعة ماء . ولعلّ عمّتي رهيجة كانت هي كذلك على حق ، عندما كانت تقول ان المرأة الحكيمة تقدر أن تجرّ زوجها بخيط قطن . . يجوز ! بل يجب ! بل لا بدّ ! بل من المستحسن .

وقطعت لطيفه مجرى حديثها مع نفسها ، عندما فطنت الى أن هذه الأفكار هي مجرد خواطر عابرة ، وتوجّهت ثانيةً ، الى المرآة تأخذ رأيها فيها ، قالت :

ـــ المرآة وحدها لا تكذب . كل شيء في هذا البيت قد يكون شاهد زور ، حتى علاقتي مع هذا الرجل ، الذي هو زوجي ، تقوم على مبادلات مزيّفة ، الحياة في حدّ ذاتها مجموعة أكاذيب ، ولكن يا للعجب ، فإن هذه المرآة وحدها لا تكذب . مَن علّم المرآة ان تكون صادقة ، دون سواها ، وما هي صلة القرابة بين المرأة والمرآة ، حتى لكأن لهما نفس الصفات . . . ولكن هل

تستطيع هذه المرآة ان تصدقني الخبر إذا سألتها عن سائر المخلوقات : عن الحرب ! عن حسني أفندي ! عن رجب جاويش ! عن خالي مخّول ! عن أم شحاده ! هذه الجارة السوء ، لماذا تركتها تخرج من عندي ، دون أن أبصق في عينها .

وقبل ان تفشّ لطيفه خلقها بأم شحاده ، دخل برجيس دون أن يأبه لزوجته ، وراح يبحث عن شيء ما حتى عثر على « المدكّ » ، وهو قضيب من الحديد كان يستعمله لتقويم جانبي الجلال عند صنعه .

وخرج راكباً على المدكّ حتى رأس زاروب بيت الشبعاني ، وتجمهر هنالك في مقابل « بارود » الذي تهيّب الموقف ووقف ينبح من بعيد .

وفكّر برجيس في ان يعود هذه المرّة الى بيته ظافراً ، بعد ان تحدّى « بارود » في عقر داره ، قال :

ــ ولكن في بيتي امرأة ، فاذا كنت لا أزال أجهل مَن أنا ، فمَن تراها تكون ! وما شأنها معي ! إنها لا تزال تحاول ان تكون شريكتي حتى في جنوني . من ذا الذي قال ان الرجل يجب ان يترك أباه وأمّه ليلتصق بامرأته ! أنا أقول من جانبي ان العلاقة الزوجية ليست ، في الحقيقة ، سوى قشرة رقيقة ينخرها السوس أحياناً ، ولا تلبث ان تتفتت تحت وطأة أخفّ بادرة من بوادر الجنون .

ثم فطن الى أنه بدأ يسلك مسالك موعرة في خواطره ، قال :

ـ حاولت أن أكون مجنوناً ، فإذا بي أوشك ان أصير فيلسوفاً ، لكن لعلّ الطريق واحدة ، وغداً عندما تنتهي هذه الحرب ـ التي يخوضها مجانين أعظم مني شأناً ـ سأحاول ان أسلك سبيل الفلسفة ، ولا سيّما ان مهنة صنع الجلالات للحمير لم تبقَ ، ثمّةَ ، حاجة اليها ، بعد أن خلت قريتنا من الحمير ، والحقيقة ـ بيني وبين نفسي ـ هي ان عقلي لم يكن يوماً ، أخصب ممّا هو الآن ، لأن اقتصادي في الكلام أغناني في التفكير ، فأنا الآن قادر ان أتأمّل بكل حرّية ، على الأقل ، عندما أكون في منأى عن زوجتي .

أنا أقول ان الانسان لا يستطيع ان يتأمّل ويتكلم في نفس الوقت . إمّا أن تتكلّم وإمّا أن تتأمّل ، فالتأمّل هو رياضة العقل المثلى ، ولا شيء يُفسد تأمّلات المرء مثل استرسال الآخرين في شولحة الآراء المشحونة بالشطط .

كَشف الظّنونْ عِند " سُكون "

عصفت الحرب أكثر فأكثر ، وبدأت تتوالى أخبار هزائم الأتراك في جبهات القتال ، فتُقابَل ، سرّاً ، بالتشفّى والشماتة

والاستهزاء .

وفي ذات صباح وصل رجب جاويش ومعه أوامر جديدة بوجوب إقامة الصلوات والتضرّعات ، في جميع أنحاء السلطنة ، من أجل نصرة السلطان ، فقال عمّي مخّول لجُلّاس المصطبة :

ـ السلطنة محشورة يا إخوان ـ والحكي بيناتنا ـ لأن ابن الحرام لا يذكر خالقه إلا عند الحشرة .

ولكن لما كان أهل قريتنا « **أول مَن أطاع وآخر مَن عصى** » ، لذلك قُرِعت الأجراس وحمل أبو شاكر البيرق الأحمر ومشى وراءَه الحاج عبد النور بالمبخرة وراح « يُرندح » ، متثاقلاً أمام شتيت من الشيوخ والأولاد للطواف حول الكنيسة ، حسبما جرت العادة ، في مثل تلك المناسبة ، وإذ برجيس يتقدّم وهو يعدو راكباً قصبة أمام الموكب ، وينشد :

ـ يقول الزير أبو ليلى المهلهل . . .

فلم يتمالك البعض ، ولا سيّما الأولاد ، من الضحك والقهقهة ، فقال أبو ناصيف :

ـ كم نحن بحاجة الى مجانين يبدّدون قتام أيّامنا الحالكة .

وانثنى الحاج عبد النور راجعاً الى سدّته فوق مصطبته ، ورجع سائر شيوخ القرية ، تباعاً ، وجلسوا على المصطبة

يستعرضون الأحداث .

كان أبرز جُلّاس المصطبة أبو ناصيف ، وهو ناطور متقاعد ، غير أنه لم يُلقِ عصا النوطرة ، واستبقاها في يده لحشرات الليالي .

وكان بينهم أبو شحاده ، الذي كان لا يهشّ ولا يبشّ ، يأخذ ولا يعطي في الحديث ، وهو الحيادي الوحيد في الحرب التي كانت تدور على المصطبة بين ذياب بن غانم وأبو زيد الهلالي ، فيعلّق أبو ناصيف على موقف أبو شحاده بقوله : « « **المغلوب مع مرتو ، مغلوب مع كلّ الناس** » ، إشارةً الى أن أبو شحاده كان مغلوباً مع زوجته .

كذلك كان بين المتردّدين على المصطبة ، من قبيل إثبات الوجود عبدو الأكنع ويده معلّقة برقبته وجبّور الأفكح وهو يعرج تارةً ذات اليمين وتارةً ذات اليسار ، فينظر اليهما أبو ناصيف بارتياب ويقول :

– « **عرج الجمل من شفّتو** »[1]

بيد أن جلّاس المصطبة كانوا على جانب من التفهّم والانسجام ، حتى إذا حضر « لَقلَق » امتعض الجميع . و« لَقلَق »

---

(١) يقال لمن يتمارض « عرج الجمل من شفته »

هذا كان يتعاطى « اللقلقة »[٢] ، لذلك أجمع الجميع على تسميته بهذا الاسم ، « **والعاميّة عمّي** » ، كما يقول المثل .

كان « لقلق » أرمل ، **لا خلفه ولا قدّامه**[٣] ، لذلك تفرّغ لتقديم النصائح الى غير طالبيها من الناس ، فلا ينفكّ يترك واحداً ليمسك الآخر ، ويقدّم اليه رأياً ، او يتبرّع له بنصيحة ، حتى ملّ الناس مقامه ومقتوه ، لذلك كان الحاج عبد النور لا يردّ التحيّة إذا دخل « لقلق » وحيّا ، لأن « **التأهيل يجلب الضيف الثقيل** » ، كما يقول المثل .

لكن أثقل ضيوف المصطبة ، ولا شكّ ، كان « وَصوَص » ، لأن جلّاس المصطبة كانوا ، غالباً ، يتبادلون الآراء في السياسة ولا يخفون قلقهم وتذمّرهم مما يحدث ، فاذا دخل « وَصوَص » حبسوا أنفاسهم وصمتوا .

و« وَصوَص » هذا ـ كما كانوا يسمّونه في ما بينهم ـ متهم بالوصوصة من وراء الجدران ، لاقتناص الأخبار ، وبالدقدسة[٤]

---

(٢) « اللقلقة » هي الاسترسال في الكلام بدون تقطيعه الى جمل ومقاطع .
(٣) « لا خلفه ولا قدّامه » ، أي ليس عنده أب أو أم أو أولاد .
(٤) الدقدسة هي اقتناص المعلومات لمصلحة دوائر الاستخبارات .

في المجالس لاختلاس الأسرار . وقيل أنه شوهد مراراً يتكلّم مع رجب جاويش ، فحامت حوله الشبهات .

وكان عمّي مخّول يتردّد على المصطبة ، حسب الاقتضاء ، فاذا ذكر الحاضرون نساءَهم بالخير ، سكت عمّي مخّول ، لأن زوجته « حبوس » كانت قد تجاوزتَ الستّين حتى عرفت ان الشرق هو حيث تشرق الشمس ، والغرب حيث تغيب ، أمّا الشمال والجنوب ، فيعلم الله ـ هذا على ذمّة عمّي مخّول ـ ولذلك كان حضور جنّيته « سكون » في أحاديثه أكثر من حضور زوجته المذكورة .

أمّا « الخواجه ميشو » ، فقلّما كان يحضر مجالس المصطبة ، حيث يتلاقى شيوخ القرية ، لأن حكايات عنتر وعلي الزيبق والشاطر حسن لم تكن تسترعي اهتمامه .

ولأنّه كان ، كذلك ، يحاذر اجتياز بعض الزواريب ، حيث يكمن عدد من الكلاب ، التي لم تكن قد ألفت شكله بين ظهرانيها ، فقد ربح الرجل عداوة كلاب القرية ولم يربح محبّة أهلها .

فقبل سفره شاباً ، الى مجاهل أميركا الوسطى ، كان اسمه « مخايل رهيجه » ، ولما رجع ، بعد طول غياب ، صار اسمه الخواجه ميشو . ووقعت الحرب ، وتسكّر باب البحر ، وقبع الرجل وحيداً في بيته .

وحيث ان بنطلونه الفرنجي انقدح ، لذلك اضطر الى أن يلبس الشروال العربي واحتفظ بالبرنيطة ، وبربطة العنق يلبسها فوق الشروال ، لذلك سمّاه الحاج عبد النور « فرنجي برّي » .

وكان الرجل قد اشترك بإحدى الجرائد البيروتية ، التي كانت تصل اليه مرّة في الأسبوع ، ويعكف على مراجعتها مراراً وتكراراً علّه يقرأ يوماً أن الحرب انتهت وانفتح طريق البحر ، ليعود من حيث أتى .

وكان عمّي مخّول ، بحكم المجاورة يذود كلاب الحي عنه ، ويسأله أحياناً عن المستجدّات من أخبار الحرب .

وفي ذات مساء حضر عمّي مخّول ، وقعد في صدر المصطبة وقال ان جنيته « سكون » ، طيّب الله سرّها ، بشّرته ان الحرب قاربت الانتهاء ، فتنفّس القوم الصعداء .

نيل المرام .. في المنام

كانت بعض بيوت القرية بدائية وأكثر سطوحها ترابية ، وعلى كل سطح محدلة لحدل السطح ، كلّما أمطرت السماء ، ماذا وإلّا ، فان مياه الأمطار تخترق السقف ويتساقط الدلف في الداخل .

وبسبب غياب أكثر رجال القرية في الخدمة العسكرية ، صارت الحاجة الى حدل السطوح ماسّة جداً ، ولا سيّما ان بعض النساء كُنّ يأنفنَ ارتقاء السطوح وتسلّق السلالم ، بسبب مضايقات الهواء .

والتفت برجيس ، ذات صباح ، فوقع نظره على امرأة تعالج محدلة على سطح بيتها . وكان الهواء عاصفاً يداعب ثياب المرأة بلا حياء ، فتترك محدلتها أحياناً لتتدارك حشمتها من سهام عيون عابري السبيل .

قال برجيس :

— وهل يقتضي الجنون عدم المروءة حتى أبقى متفرّجاً مكتوف اليدين ، ومتى احتاجت الشهامة الى دراسة علم اللاهوت . لقد رأيت ما رأيت رغم شدّة جنوني ، ومع أنني ، والحقّ يقال ، غير متأكد من سلامة خواطري ، سأحاول مساعدة هذه المرأة ، بدافع نخوة الرجال .

وعندما أنهى برجيس حدالة السطح ونزل عن السلّم وجد المرأة تنتظره عند الباب مع رغيف وبيضتين .

ولاحظت امرأة أخرى ما حدث فنادته وكلّفته حدالة سطح بيتها . ثم أومأت اليه امرأة ثالثة من بعيد ، وسلّمته الماعوس[١] ، وحدّثت نفسها ، قالت : « عندما يحدث قحط في

---

(١) الماعوس هو قوس من الحديد تُجرّ المحدلة بواسطته .

الرجال ، تُرسل السماء مجنوناً نظيف الطويّة سليم النيّة ، مثل هذا الرجل ، لتأمين احتياجات النساء .

وقبل أن تغرب شمس ذلك النهار ، وبعد ان أنهى برجيس عدّة مهمّات واستوفى خبزاً وبيضاً . . ومجاملات ، حدّث نفسه ، قال :

ــ أولالك النساء لم يكن لي عندهنّ شأن في عهد سلامة عقلي ، وها هنّ الآن ، يتسابقن على خطب ودّي في ريعان جنوني . . . عجيبة هي حكمة الله في خلقه ، فقد خلق المخلوقات ثلاث فئات : الرجال والنساء والأولاد .

فالرجال وهم أضعف هذه الفئات تقضّ مضاجعهم أتفه الأخبار والاشاعات ، والنساء وهنّ أذكى المخلوقات يستطعن التكيّف مع الظروف في أحلك الأوقات . أمّا الأولاد الذين خلق الله عقولهم في حناجرهم ، وفي أرجلهم ، فإنني سأتحمّل « صيصعتهم » ريثما ترتفع عقولهم الى رؤوسهم .

وعندما توجّه ليبيت ليلته في تنّور بيت « هلّون » تبعه جرو كلب عاوياً وراءَه حتى أوّل المعبور ، فرمى له لقمة مما جناه في عمل يومه ، وقال :

ــ لا جود إلا من الموجود !

كان التنّور ما زال دافئاً ، وكانت رائحة الخبز والفطائر

تضمّخ أرجاءه ، وكان ممكناً ان ينعم برجيس فيه بنوم هادىء . فأوصد باب التنور وتلفّع بساطاً رثّاً كانت صاحبة التنّور تتركه هنالك ، ثم خُيّل اليه أنه تنسّم رائحة نسائية في البساط ، قال :

ـ لقد تناوبتْ الجلوس عليه ، اليومَ ، عدّة نساء ، وأنا أربأ بنفسي أن أغوص في التفاصيل ، لأنها تؤدّي الى نزعات شنيعة . واني أشهِد الله على سلامة نيتي .

وقبل ان يستسلم للكرى فطن إلى أنه ، من وقت بعيد ، لم يشكر الله تعالى على وافر نعمائه ، فطوى زنديه على صدره وأطلق عنان خواطره قال :

ـ أشكرك اللهمّ ربّي ، لأنك أنت ربّي ، ارحمني كعظيم رحمتك . أنت الذي لا تخفى عليك خافية ، تعلم ولا شكّ ، أنّي ألوذ بهذا المكان حيث تعشش مكنونات النساء حول هذا التنور ، فتستحيل هواجس مريبة . . . ألوذ بهذا المكان ، لأنني مجنون ، في حكم القانون ، وهذا مريع حقّاً . ولكن فلتكن مشيئتك ، كما في السماء ، كذلك على الأرض ، أعطني خبزي كفاف يومي ، ولا تدخلني في التجربة ، آمين .

واطمأن الى أنّه استطاع ان يتراضى مع الله القدير ونام نوماً هادئاً . وإذ كان الجو ما زال دافئاً ترحرح في نومه ، فرأى ، في ما يرى النائم طيف امرأة ، من بعيد ، ثم بدأت الرؤ يا تتوضح شيئاً فشيئاً ، وما لبث ان تبيّن صورة امرأة على سطح بيتها والهواء

لا يفتر يداعب ثوبها ، وبدت الرؤية في المنام أوضح مما كانت في اليقظة ، ثم صارت المرأة امرأتين ، فثلاث ، وكانت تبدو على وجوههن ، جميعاً ، ملامح الغواية .

وما لبث أن رأى صاحبة التنّور ، في متناول يده وحولها نسوة بدت وجوههنّ متوهجة من أجيج التنّور ، ومن حرارة المسامرة . ولم يكنّ يفطنّ الى وجود رجل غريب في ما بينهنّ ، لذلك تبذّلن واحوجتهنّ الحشمة في جلوسهنّ ، كيفما كان حول التنّور .

ثم امتدّت يد ناعمة وسحبت البساط من فوقه فاستيقظ مرتعداً ، قال :

ـ بضعة نساء على رجل واحد ، هذا غير حقّ ، ولكن هذا هو الواقع السيّء جداً . فأسوأ ما سمعت في عهد رجحان عقلي ان امرأتين قد تتشاركان على اقتناء رجل واحد ، وأحياناً ، مدى الحياة . لعمري ان هذا لغبن فادح في حق الرجال ، وغداً إذا خاس عدد الرجال ، بسبب الحرب ، فستتعاون عدّة نساء على اقتناء رجل واحد . . . هذا على الأقل ما يرمز اليه هذا المنام الغريب الذي رأيته الليلة ، بوحيٍ من الله القدير العظيم .

وعندما فطن الى أن كل ما يحدث في اليقظة ، او في المنام ، إنّما يحدث بارادته ، جلّ جلاله ، قال :

ـ إذن أنت ، أيها الآله الجالس عظيماً في خيمتك الزرقاء مسؤول عن تعاستي . إنك أوحيت الى حسني أفندي ان يصمني

بالجنون ، وها أنذا ، كما تراني ، أتسكّع في حمأة التشرّد . أما كان أحرى بك ، ما دام الأمر والنهي ، رهن ارادتك ، ان تيسّر لي أمري فأكون الآن كاهناً محترماً وأباً للجميع !

فأنت تعلم يا إلهي أن والدتي نذرتني لخدمتك وتمجيد اسمك ، فدخلت الدير ، لمدّة شهرين ، تعلّمت خلالهما كلّ ما يُطلب مني لخدمة الذبيحة المقدسة . وعندما رجعت الى قريتي ، لأصير كاهناً فيها ، قرّر أهالي القرية ان حاجتهم إلـيَّ كجلالاتي ، كانت أكثر من حاجتهم إلـيَّ ككاهن أساعدهم في خلاص نفوسهم . على كل حال ، فليكن اسمك يا ربي مباركاً .

ثم انتبه الى ان جميع هذه الأفكار كانت ملفّقة وقد لجأ اليها لكي يطمس ما علق في ذهنه مما رأى في منامه ، قال :

ــ لعلّ هذه اللخبطة في منامي نتيجة لخربطة هواجسي في هنيهات يقظتي وانتباهي ، ولكن هل يستطيع مجنون مثلي ان ينقل معه هواجس أيّامه الى دوامس لياليه !

وأضاف :

ــ إنّني لا أزال أفكّر كعاقل وأتصرّف كمجنون ، وهذا هو سبب بلبلة ظنوني ، فليتني أستطيع ان أعكس هذا الواقع ، فأتصرّف كعاقل وأفكّر كمجنون ، فلا أفقه ، إذن ، معنى الخير والشر ، ولا تقلقني المعاصي ، حتى ولو كانت مجرّد أضغاث أحلام .

لكنه شعر أن أفكاره ما زالت متوهّجة في حلك التّنور ، قال :

ـ لقد عرفت وأنا بعدُ في الدير ، رجالاً عقلاء نذروا العفّة ، كوسيلة لبلوغ الجنّة ، وهم لا شكّ من الرابحين . فليتني أتمكّن من تلمّس سبيل آخرتي . ان باري البرايا ، لحكمةٍ لا يحدّها عقلي ،قسم الآخرة قسمين ، فالجنّة هي مآل الصالحين ، والجحيمِ هي مستقرّ الطالحين ، فأين تراه يُرتّب نفس مَن كان مثلي بين بين ، لا باراً فيُصطفى ولا خاطئاً فيُنتفى . فلعلّ الله ، جُلّت حكمته ، لم يفطن ، عندما خلق الخليقة ، أن كثيرين ممن هم أحياء اليوم ، سوف لا يكون لهم حظ في النعيم ولا موجب لزجّهم في الجحيم .

محاولة عُبور ، بَعدَ نَسْفِ الجُسُور

وصدقت مجدّداً نبوءَة « سكون » جنّية عمي مخّول بانتهاء الحرب ، بعدما توالت أخبار الهزائم التركيّة في ساحات القتال .

ومع سقوط القدس ، خريف سنة ١٩١٨ في أيدي الحلفاء بدأت فلول الأتراك تتراجع شمالاً . وتوافرت أنباء عن تأليف حكومة عربية في بيروت ، وبدأ بعض شبّان القرية المجنّدين يعودون تباعاً . وصعد المنادي الى سطح الكنيسة ونادى وبشّر

الناس ، أخيراً ، بانتهاء الحرب .

ووقف برجيس تحت جنح الدُجى يقرع باب بيته ويقول :

— أنا ! إفتحي !

قالت لطيفه :

— أنت مجنون ، ولا مكان لك عندي .

— إفتحي لي فأروي لكِ حكايتي .

— إنني لا أستقبل مجانين في بيتي .

— ولكنني لست مجنوناً ، صدّقيني ، إنني أقسم لكِ بشرفي . .

— متى كان عند المجانين شرف حتى تُقسم بشرفك !

— يا لطيفه ! يا زوجتي ! هل نسيتِ ذلك النهار المشؤوم ، عندما سألتكِ كيف نهرب الى الأمام ، فقلتِ ان « ما يُقضى بالمال ، يُقضى في الحال » ، وناولتني خمس ليرات . .

— كفى ! كفى ! أذكر جيداً أنّك ذهبت عاقلاً ورجعت مجنوناً ، وها أنت الآن ، بعد أربع سنوات من الجنون المطبق تعود لتذكرني بذكريات ميتة .

— ولكن حسني أفندي هو الذي اتهمني بالجنون لكي يخلّصني من الخدمة العسكرية . .

— وهذا أكبر برهان على جنونك .

وطال وقوف برجيس على الباب ولّما يئس من اقناع زوجته بسلامة عقله ، قال :

ـ لعلّي أكون مجنوناً .

وانطوى راجعاً الى تنّور بيت هلّون ، قال :

ـ لو لم أكن مجنوناً لما سمعت نصيحة حسني أفندي ، عندما أوصاني أن لا أسلّم سرّي الى زوجتي ، ورحم الله مَن قال :

ـ « **المرا ستّاره ولو كانت قهّاره** » .

ثم استدرك وقال :

ـ ها قد صار لي أربع سنوات وانا تائه في دنيا الضلال ، حتى ابتعدت كثيراً عن مواقع السلامة . فكم يقتضي لي من الوقت ، يا ترى ، فيما لو حاولت ، منذ الآن ان أتلمّس طريق العودة ، لكي أستعيد اعتباري . ولكن لعلّ فترة نقاهة عقلي ستمتدّ حتى نهاية أجلي .

إرادة الجماعة مِن إرادة رب الجماعة

لم يكن قد مرّ أكثر من شهرين على إقامة الصلاة لنصرة السلطان حتى انهزم السلطان ، فأقيمت الصلوات مجدّداً ، ولكن لنصرة السلام .

وتلقى أهالي القرية إشارة من مرجعيون بوجوب إقامة صلاة

الشكر ابتهاجاً بانتصار الحلفاء ، فقُرعت الأجراس وأقبل الناس بحرارة الى الكنيسة .

وكان الخوري الياس قد بلغ من العمر عتيّاً ، وانحنى ظهره تحت وطأة السنين فانقطع عن خدمة الذبيحة المقدّسة ، وإذ علم بالنبأ حلّت عليه النعمة فنهض قائماً وحمل عكّازه وجاء ودخل وهتف بحرارة :

— المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرّة .

وأُضيئت الشموع وأُوقدت المباخر ، وبدت صورة السيدة العذراء وهي تحتضن طفلها الفادي ، أشدّ بهاءً ممّا كانت في أيّ يوم مضى . كما تألّق مار جريس فوق صهوة حصانه الأبيض كأنّه عائد لتوّه من المعركة .

وعانق الرجال بعضهم بعضاً ، ولم تتمالك بعض النسوة عن الزغردة . كما دخلت نساء أخريات حاملات النذور ، وخررن ساجدات أمام صورة والدة الإله .

ودخل أخيراً برجيس . . فشخصت اليه الأنظار . لكنّه تقدّم وئيد الخطى ، ووقف قرب الحاج عبد النور ، فصاح أحد المؤمنين :

— المجنون ! المجنون ! اطردوه لئلّا يدنس المكان .

قال برجيس :

ـ اسمعوا يا إخوان ! أنا لست مجنوناً . .

فصاح كثيرون :

ـ مجنون ! مجنون !

ـ دعوني أروي لكم حقيقة حكايتي ، فقد تجنّى عليّ حسني أفندي . .

وارتفع الصراخ من كل جانب :

ـ فليخرج برجيس !

ـ ولكن صدّقوني ، فقد دفعت خمس ليرات ثمن جنوني . .

واختنق صوت برجيس في صياح الاحتجاج . . لكن الحاج عبد النور أومأ من عن يمين المذبح انه يريد ان يتكلّم ، قال :

ـ بعد جنون دام زهاء أربع سنوات صار جنون هذا الرجل مزمناً ، ولكننا نذكر جميعاً ان جنونه بدأ بنوبة مفاجئة ، وهذا النوع من الجنون قد تعقبه نوبة تعقّل مفاجئة ، وهي موقّته لا تلبث ان تنحسر أمام شدّة جنونه . . يجب إذن ، والحالة هذه ، أن نتركه وشأنه ونراقب حركاته وسكناته ، فقد تعاوده نوبات جنون أشدّ وطأة من سابقاتها ، ويكون والحالة هذه وضعه خطيراً جداً ، وربّما استوجب حجره في أحد مصحّات الأمراض العقلية . . . ولكن مهما يكن أمر هذا الرجل ونوع جنونه ، فهو إنسان يجب ان نعامله باللين الى ان يرحمه الله .

فتناول أبو ناصيف حبل الكلام قال :

ـ أقسم بحرمة هذا المكان المقدّس انني قادر أن أشفي جنون هذا الرجل بواسطة « كـيّ » على شكل صليب ، في صنديحته . . ولكن ماذا نفعل بأولادنا وهو موضوع لهوهم وزهوهم ؟ وكيف نصرف عنا ملامة نسائنا ، كلّما دلفت سطوح بيوتنا واحتاجت حدالتها الى مجنون مغامر مثل هذا الرجل ؟ . . بل قولوا لي بربّكم ، كيف نستطيع إذا أردنا أن نُحصي أنصاف المجانين في قريتنا ، إلا بالمقارنة مع مجنون كامل توفّرت فيه شروط الجنون وهي الطرافة والوداعة ونخوة الرجال كما توفّرت في برجيس هذا .

فصرخ برجيس صوتا مستنكراً ، واقتحم الجناح الأيمن من الهيكل ، آخذاً في طريقه بعض الشمعدانات والمباخر حتى بلغ سُدّة « الفادي المصلوب » ، وهزّه بعنف وقال :

ـ إشهد يا إلهي على سلامة عقلي ! يا مخلّص خلّصني !

فرطّب الدمع محاجر الخوري الياس ورفع يده وبارك برجيس ، ثم أتجه الى السماء وقال :

ـ أيّها المسيح المخلّص ! يا مَن علّمتنا ان نقول بلسانك « تعالوا إليّ يا جميع المتعبين وأنا أُريحكم . . أنت يا مَن أخرجتَ الشياطين والأرواح النجسة من مجانين «كورة الجرجسيين»[1]،

---

(١) إنجيل متى الاصحاح الثامن .

وأدخلتها في قطيع الخنازير ، هوذا أمامك الآن رجل مجنون تعذّبه الشياطين والأرواح النجسة ، التي تعبّأته ، منذ وقت طويل ، فترأّف به ، وارحمه كعظيم رحمتك .

فصاح برجيس :

ــ هذا غير صحيح ! هذا كلام باطل !

ومزّق ثوبه وأرغى وأزبد وارتعد ، فتقدّم عمّي مخّول وتناوله بكتفيه ونفضه بعنف وقال له :

ــ إذا كنت ، والحالة هذه ، ما زلت تستطيع ان تفهم ، فافهم بأن دفاعك عن نفسك لن يجديك نفعاً ، إذ ليس المهمّ معرفة رأيك فيك ، بل رأي الجماعة فيك . . لأن :

« **إرادة الجماعة هي من إرادة ربّ الجماعة** » .

خرج برجيس يجرّ أذيال الخيبة ، وكانت تنتظره ، عند باب الكنيسة شرذمة من الأولاد مشت وراءه « بالطرطقة » حتى تنّور بيت هلّون .

★★★

وبقيت الشمس تُشرق من وراء حرمون وتغيب خلف مرجعيون ، وقريتنا إبل السقي قائمة في وسط الدنيا .

حِكمة الكتاب

اللهمَّ ! قَصِّر أيّامي قبل أن يملّ الناس مقامي

***

خلال زيارتي للبرازيل سنة ١٩٧٦ نشر أحد الإخوان المغتربين كتاباً موضوعه « مقامات سليمان الى الأهل والخلّان » ، وأرسله هدايا الى كلّ مَن حظي بعنوانه ، وخصّني بنسخة مع إهداء لطيف .

تصفّحت الكتاب فإذا هو مجموعة خبريّات ونظريات ونصائح وإرشادات وتواريخ ونبوءات ، مع مقدمة وإهداء وشكر وتوطئة وموجز عن حياة المؤلف معزّز برسوم ورسائل ، وعجائب وغرائب ومفاجآت .

وسألت أحد الأصدقاء عن حقيقة هذا الكتاب ، فقال إن سليمان ، مؤلف الكتاب كان رجلاً رزيناً محترماً حتى أدركته الكهولة ، ففلتت حنفية لسانه وصار معه « جَرَيان حكي » فابتعد عنه أكثر الناس ، لأن المثل يقول :

— « **مَن كَثُرَ كلامه قلّ احترامه** » .

وبسبب عدم وجود مستمعين حول الرجل أصابه احتقان في رأسه . . وانقدح ، أخيراً ، جراب عقله ، فصار « يهرّ حكي » ويتكلّم وحده لوحده .

فقلقت أفكار زوجته ، حرصاً على كرامته ، واستشارت أحد الأطباء بشأنه ، فقال لها :

ــ شجّعي زوجك على كتابة مذكراته بنفسه ، « **بيفرّغ جرابو بكتابو بترتاح أعصابو !** »

وهكذا صار . أفرغ الرجل جرابه في كتابه ونشره على الأهل والخلّان . ولكن ، لعلّه ، بهذه الطريقة أراد أن ينتقم من الناس : « إنكم لا تريدون ان تسمعوا كلامي بالتقسيط ، هوذا كتابي بين أيديكم بالجملة ، فاقرأوه ! » .

★★★

من عادتي كلّما نشرت كتاباً ، من كتبي ، أن أختار له حكمةً أجعلها مسك الختام ، حتى متى فرغ القارىء ، من قراءة الكتاب ، تبقى حكمته في ذهنه وعلى لسانه . وحيث انني أقف الآن على أبواب الشيخوخة ، لذلك أردت أن أتخذ لي عبرةً من حكاية رجل مسكين خانه لسانه في آخر زمانه ، فجعلتُ حكمة كتابي هذا :

ــ اللهمَّ ! قَصِّر أيّامي قبل أن يملّ الناس مقامي .

شكر

الشكر للمجلس الوطني لإنماء السياحة ولمركز النهار للوثائق والمعلومات ولسائر الأصدقاء الذين قدّموا الصُوَر المنشورة في هذا الكتاب ، باعتبارها تمثّل الشخصيّة الشعبيّة الأصيلة ، ولا علاقة لأكثر أصحاب هذه الصُوَر بمضمون الأقوال والأحداث المذكورة في الكتاب .

كتب للمؤلف

لئلا تضيع	الطبعة الأولى
لئلا تضيع	الطبعة الثانية
لئلا تضيع	الطبعة الثالثة
في الزوايا خبايا	الطبعة الأولى
في الزوايا خبايا	الطبعة الثانية
في الزوايا خبايا	الطبعة الثالثة
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الأولى
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الثانية
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الثالثة
حكي قرايا وحكي سرايا	الطبعة الرابعة
شيح بريح	الطبعة الأولى
شيح بريح	الطبعة الثانية
شيح بريح	الطبعة الثالثة
الناس بالناس	الطبعة الأولى
الناس بالناس	الطبعة الثانية
حيص بيص	الطبعة الأولى
المؤلفات الكاملة	الطبعة الأولى
المؤلفات الكاملة	الطبعة الثانية

فهرس الأمثال والأقوال المأثورة
حسب ورودها في هذا الكتاب

صفحة

أمّني للمي بالغربال ولا تأمّني لرجّال ١٠
المرا القهّاره قدّاره ١٣
إذا ارتفع سعر الشعير بيهبط سعر الحمير ١٥
إن التي تستطيع تنييم الضبع على ركبتها لا تعجز عن تنييم
زوجها على مخدّتها ١٤
حيّه بالكواره ولا مرا قهّاره ١٤
الانسان حيوان كذّاب ٢٤
شفّه وطا وشفّه غطا ٣١
هذي مصالحه يما مقابحه ! ٣١
الله يبارك بشجره مناكل من غلّتها ومنقعد بفيّتها ٣٦
اللي بيجعل الثعالب شهودو بتضيع حدودو ٣٦
المرأة أمّارة بالسوء ٤٣
لولا حجاري قتلو الانكشاري ٤٥
الهندام على قد المقام ٤٧
الحكي نصّو صحيح ونصّو تمليح ٤٨
شوفة المليح تسبيح ٥٣
فلاح مكفي سلطان مخفي ٦١

عين الخوريّه بقرش الصينيه ، إن ما سدّ حاجتها، بيفك
حكلتها ٦١
المهم نقضي اليوم همّ اليوم ، وهم بُكره لبُكره ٦٣
الحرمه بتنعاز لثلاث شغلات ٦٥
لا أعوج ولا جالس ٧٠
الهريبه ثلثين المراجل ٧٢
الف قولة جبان ولا قولة الله يرحمو ٧٢
كل شي بدو عزيمه إلا الهزيمه ٧٢
شمع الخيط وهرب ٧٢
حب حاكمك قد عازتك ليه وبس تقدر هبّط الحيط عليه . ٧٥
المرا، متى قبرت حماتها، ونفّقت بنيّاتها، تقعد وتمدّ جريّاتها ٧٧
نيّال اللي إلو مرقد عنزه في جبل لبنان ٧٩
مش رمانه قلوب مليانه ٨١
ما في بالميدان غير حديدان ٨٤
تهفا ولا يردّها بليق ٨٤
البّراني والجوّاني ٨٧
حاميها حراميها ٨٨
ما بتهزّ العروش غير النسوان . . والقروش ٩٥
كلّنا باالهوا سوا ١٠١
القول قول أجير والفعل فعل أمير ١٠٤
مثل حكاية ابريق الزيت ١٠٥

قد فُولو قدّفولو ١٠٧
إركض ركض الوحوش وغير رزقك ما بتحوش ١١١
كلّ رعيّة يوم بتيسنة سنة ١١١
فقر وهداوة بال لا مكسب ولا رسمال ١١١
الدنيا إلك مَرّه وعليك مَرّه ١١٢
مش كل مرّه بتسلم الجرّه ١١٣
النار ما بتحرق بغير محلّها ١١٣
كل عنزه معلّقه بكرعوبها ١١٣
إنْ أقبلت باض الحمام على الوتد ١١٣
خربت جونيه ١١٤
ندمت غزير ١١٥
الإيد الفاضية مجويّه ١٢١
يا كثرة صحابي لما كان كرمي دبس ، ويا قلّة صحابي
لما صار كرمي يبس ١٢٢
من قلّة الرجال سمّوا الديك بو قاسم ١٢٤
الطرف طرفي والأرض للسلطان ١٢٨
الظلم أسلم عاقبة من رخاوة الحكم ١٣١
إربط الحصان حدّ الحمار بيصير بيناتهم عداوة كار ١٣٤
إبن الحرام لا تدفشو بيوقع منّو لحالو ١٤٠
أتمنّى أن أموت قبل ان تحكم دولة الحمير والكلاب ١٤١
شروال جدّي ما زال معلقاً في شجرة التوت ١٤٥

ان البعوضة تدمي مقلة الأسد ١٥١
الحما حمّه وبنت الحما عقربه مسمّه ١٥٩
الحمار أقلّ الدواب مُونه وأكثرها معونه ١٦٤
اللي ما إلك عازه فيه ، لشو تشتريه ! ١٦٨
الانسان : مولود ، ملحود ، وبالجنّه موعود ! ١٧٣
كلمه بمحلّها بتغني عن حمل جمل حكي ١٧٣
الرجال مخبّايه بثيابها ١٨٠
ابن أوادم اكثر من اللزوم ١٨٤
عند اختلاف الدول إحفظ رأسك ١٨٨
عداوة دهر ما بتزول لا بيوم ولا بشهر ١٩٦
مجنون طَرطِقلو ! بيطير من حبال عقلو ٢٠٩
الله ينجينا من شرّ ولاد الحكومه ٢١٣
ما بيجي من الغرب شي يسرّ القلب ٢١٤
حكي القرايا شيء وحكي السرايا شيء آخر ٢١٤
ما يُقضَ بالمال يُقضَ في الحال ٢١٦
اللي لا هو من أهلك ولا انت من أهلو ،
كلّ ما جنّ افرحلو ٢١٩
اللي بدّك تحيّرو ، خيّرو ٢٢١
الجنون والحبل . . وركوب الجمل ، ما بيتخبوا على أحد ٢٢٦
الطلسم : يُلقي جبلاً على جبل ، ويبلو الذكر بالحبل . . ٢٣٠
الغول أكل جميع الناس ما عدا زوجته ٢٣١

اذا وقعت العين على حجر المطحنه فلقته فلقتين ٢٣٢
الحيّه ما بتنحطّ بالعبّ ٢٣٣
شغله ما عليها رباط : صداقة مرا لمرا ، والصحوه بشهر شباط ٢٣٤
قلّل كلامك ، يُحمد مقامك ٢٣٩
إوّل من أطاع وآخر مَن عصى ٢٤٢
المغلوب مع مرتو مغلوب مع كل الناس ٢٤٣
عرج الجمل من شفّتو ٢٤٣
العاميّه عمى ٢٤٤
لا خلفه ولا قدّامه ٢٤٤
التأهيل يجلب الضيف الثقيل ٢٤٤
فرنجي برّي ٢٤٦
لا جود إلا من الموجود ٢٤٨
المرا ستّاره ولو كانت قهّاره ٢٥٤
إرادة الجماعة من إرادة رب الجماعة ٢٥٤
من كثر كلامه قلّ احترامه ٢٥٩
فرّغ جرابك بكتابك بترتاح أعصابك ٢٦٠
اللهمَّ ! قصّر أيامي قبل أن يملّ الناس مقامي ٢٦٠

فهرس

مقدمة ـ صارت الحبّه قبه ٥
حيص بيص ٧
الأدب الشعبي : أدب الواقع الانساني ٧
الحكاية أبلغ وسائل التعبير في الأدب الشعبي ١٠
حيّه بالكواره ١٤
المثل ، قلّ ودل ١٥

القسم الأول ٢١

أبو فرج أفهم من أفلاطون ٢٣
رصاصة أبو خطار خرمت ٢٧
عميان القلوب ٢٩
المصالحة شيء والمقابحة شيء آخر ٣٠
هيك دعوى بدها هيك شهود ٣٢
أكلنا من غلّتها وقعدنا بفيّتها ٣٦
الضربه لمن سبق ٤١
الهندام على قد المقام ٤٦
الحكي نصّو صحيح ونصّو تمليح ٤٨

المعلم جريس المقدسي ٥١
نجيب حنكش ٥٢
شوفة المليح تسبيح ٥٣
عين الخوريّه بقرش الصينيه ٦١
هم بكره لبكره ٦٢
ما طلعت سلّتها بلا تين ٦٤
لا أعوج ولا جالس ٦٩
شمّع الخيط وهرب ٧٢

القسم الثاني ٧٣

صاحب البيت أدرى بالذي فيه ٧٥
المثل في خدمة العلم ٨١
نيّال اللي إلو مرقد عنزه في جبل لبنان ٨٣
ما في بالميدان غير حديدان ٨٦
تهفا ولا يردّها بليق ٨٨
حاميها حراميها ٩١
ما بيهز العروش غير النسوان والقروش ٩٥
كلّنا بالهوا سوا ١٠١
مال قارون ١٠٣
القول قول أجير والفعل فعل أمير ١٠٤

حكاية ابريق الزيت ١٠٥
قد فولو قدفولو ١٠٧
أرزه عزّه ١٠٩
فقر وهداوة بال ١١١
قال المثل ١١٢
خربت جونيه ١١٤
من قلّة الرجال سمّوا الديك بو قاسم ١٢١
والأرض للسلطان ١٢٧
الظلم أسلم عاقبة من رخاوة الحكم ١٣١
عَود على بدء ١٣٣
أدب الحكمة ١٣٤
أدب الحكايات ١٣٧
أدب الأساطير ١٣٩
أدب الخرافات ١٤١

القسم الثالث ١٤٣

شروال جدّي ما زال معلّقا في شجرة التوت ١٤٥
إبل السقي ١٤٧
الحكاية أبلغ من الموعظة ١٥٠
في ذلك الزمان ١٥٧

عصفورين بفرد حجر ١٥٩
حجاب الحاج خيرو ١٦٣
أبو نبهان صديق الانسان ١٦٤
جِمل جَمل حكي ١٦٨
حكايات وخبريات ١٧٤
الرجال مخبّايه بثيابها ١٧٩
ابن أوادم أكثر من اللزوم ١٨١
عند اختلاف الدول إحفظ رأسك ١٨٥
عداوة دهر ١٩٣

القسم الرابع - برجيس ٢٠٣

حكمة الكتاب ٢٥٩